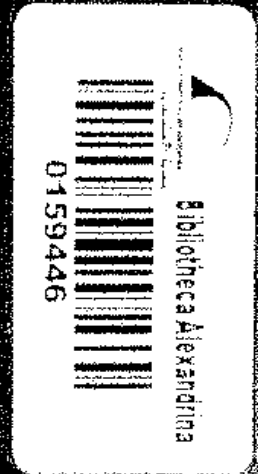


فكرنا
البيكاع

دكتور عبد القادر حسين
كلية البساتن الإسلامية - جامعة الأزهر



دار الشروق

فَأَمَّا
الْبَيْتُ

الطبعة الأولى
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

بيروت، سورية، هاتف: ٥١٤، فاكس: ٧١٥٠٦، بريد إلكتروني: info@daralshorouq.com
القاهرة، مصر، هاتف: ٧٧٥٧٨٠٧٧٤٨١، بريد إلكتروني: info@daralshorouq.com

فقه البيوع

دكتور عبد القادر حسين
كلية البنات الإسلامية - جامعة الأزهر

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

احتل البديع قديماً مكانة مرموقة عند النقاد والبلاغيين ؛ لما رأوا فيه من جمال يضيفه على العبارة الثرية ، أو القصيدة الشعرية ، كما وجدوا ألواناً من البديع ترخر بها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، فحفظوا به ، وانجذبوا إليه في توشية أشعارهم وتزيين خطبهم دون كلفة أو قصد ، فتسمن ذروة البلاغة ، حتى عده قوم من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ؛ لما له من أثر في جلال المعاني وجمال الألفاظ . ولكن الشعراء في عصر التجديد فتنوا به وأفرطوا فيه ومنحوه كل اهتمامهم ، سواء كان المعنى يفتقر إليه أو يستغني عنه ، فوقعوا في كثير من العيوب التي أدى إليها التكلف والتعسف . وبدلاً من أن يكون البديع وسيلة لتحلية الألفاظ وتحسينها ، أو طريقاً لكشف المعاني وإبرازها ، صار مسلكاً وِعراً يؤدي إلى الإغراب والتعمية ، أو الإفساد والعمى .

ونسج أهل الشعر والنظم على هذا المنوال ، وأضاف العلماء إلى ألوان البديع ألواناً تعد بالآلاف حين أطلقوا على كل معنى اسماً من أسماء البديع ، فأنحرف عن مساره ، وأصبح عبثاً ثقيلاً في نظر النقاد المحدثين يجب التخفيف منه ؛ بل التخلي عنه والتخلص منه .

والحق أن البديع له مكانته المرموقة التي ظفر بها عند النقاد الأقدمين ، إذا أحسن استخدامه وجاء عفواً بلا تكلف .

وأرى أن العلة في فساد البديع التي ظهرت في العصور المتأخرة لا ترجع إلى البديع ذاته ، وإنما ترجع إلى سوء استخدام الشعراء لألوانه والإفراط فيها ، حتى صار البديع عندهم مطسحاً لا يعدلون عنه ، ولا يرجون سواه . وهذا ما أثبتناه في الباب الأول من الكتاب .

أما الباب الثاني فقد عكفت فيه على ذكر المحسنات البديعية ، مستشهداً
لكل محسن بأمثلة غزيرة من القرآن الكريم وأحاديث الرسول وعيون الشعر ،
حتى يتبين بوضوح أمام الأبصار أن البديع دون ريب قيمة جمالية كبرى ، لا
تخطئها الأذن المرفهة ، ولا يغفل عنها الوجدان الصادق .

دكتور عبد القادر حسين

مدينة نصر ١٠/٥/١٩٨٢

البَابُ الْأَوَّلُ

الْبَدِيعِ عِنْدَ النِّقْطَةِ

البرج عند النقّاد

١

إن لغتنا العربية - وخاصة عندما تصاغ في صورة شعرية - تتميز بالجمال والكمال ، وتمثل قمة الابداع اللغوي ؛ لما تحويه من غنى عظيم في مفرداتها ، وإتقان محكم في تراكيبها ، وزخرف أخذ في أشكالها ، وجمال موسيقي في جرسها .

السجع في النثر ، والقافية في الشعر ، والفواصل في القرآن ، تنبئ عن التماثل بين الكلمات ، والمشاكله بين الألفاظ . هذا التماثل في الألفاظ ، والانسجام في العبارات يشهد بموسيقية اللغة ، وبدل على جمالها الأكيد .

وأبرز ما يثبتك عن جمال اللغة العربية وموسيقيتها ما فيها من ألوان بديعية معنوية أو لفظية ، عن طريق الكلمة وأختها ، أو الكلمة وضدها في سياق واحد ، تلحظ الأضداد في الطباق والمقابلة ، كما تلحظ المماثلة في الجناس والمشاكله ، في سياق ينساب في سلاسة لا يشوبه تنافر ، ولا يعتره اضطراب .

إن عبقرية العرب تتمثل في لغتهم وأساليبهم . الجاحظ يصف لغة العرب ، وحديث الأعراب مزهوا فيقول : « ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا آنف ولا ألد في الأسماع ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان ، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء ، والعلماء البلغاء » (١) .

وحين أراد العرب أن يفسخروا بعروبتهم في مواجهة الشعوبية ، وبتغنوا بأبجادهم ، عثروا على ضالتهم في الألفاظ فرصدوها ، وفي الأشعار فجمعوها .

(١) البيان والتبيين الجاحظ ١/١٤٤ ط الخانجي .

فن القول ، وجمال النطق ، وحسن العبارة ، يشرف به العربي ، فيتبوأ المكاة المرموقة ، ويفتح الطريق أمامه للمال والجاه ، وتقبل عليه الدنيا بعزها وسلطانها . ولحن القول ، وسوء النطق ، ورداءة الصياغة ، نصكّ المسامع ، فيهون أمر المتكلم ، وتوصد الأبواب دونه فلا تقضي حاجته .

عمر بن عبد العزيز الحاكم العادل يهتر طرباً لنطق جميل ، ويعبس وجهها للحن بغيف ، فيجود في الأول التذاذاً بما يسمع ، ويسك في الثانية ازدراء لما يقال : « إن الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن ، فأرده عنها ، وكأني أقضم حب الرمان الحامض ؛ لبغضي استماع اللحن ، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب ، فأجيبه إليها ، التذاذاً لما أسمع من كلامه »^(١) والمراد بالإعراب هنا ليست قواعد النحو فحسب ؛ بل هو الإفصاح الذي يؤدي إلى لذة السامع لما يقال .

ليس هذا شأن عمر بن عبد العزيز وحده ، وإنما هو موقف العربي على إطلاقه ، يتنوق ألفاظ اللغة وتراكيبها ، ويفتن بجمالها وسحرها ، فكلما حلي الكلام وعذب ، التصق بالأسماع ، واتصل بالقلوب ، وخصوصاً إذا ترجم المعنى بلفظ شريف ، وعبر عنه بكلام رشيق .

ومن ثم كان لزاماً على العربي أن يدقق في اختيار ألفاظه ، وأن يتأنق في تركيب عباراته ، وأن يخلع عليها من الحسن ما يرفع من شأنها ويعلي من قدرها ، فراه يردد النظر في الكلام بعد أن يفرغ منه ، ويشرع في تهذيبه وتنقيحه ، نظماً كان أو نثراً ، فيغير ما يجب تغييره ، ويصلح ما يتعين إصلاحه ، ويطرح ما يتصف بالغلظة والغرابة ، فإذا وصف كلامه بالمهذب المنقح ، علت رتبته ، وإن كانت معانيه غير مبتكرة .

زهير بن أبي سلمى كان معروفاً بالتنقيح والتهذيب ، وله قصائد تعرف بالحوليات ، « فقد روى أنه كان يعمل القصيدة في شهر واحد ، وينقحها ويهذبها

(١) تجديد الفكر العربي د / زكي نجيب محمود ص ٢٣٢ ط دار الشروق .

في أحد عشر شهراً» (١) ، لا ليضمن سلامتها من العيب فحسب ؛ بل ليخلع عليها الحسن ، فتبدو في أجمل صورة وأبدع مثال .

كما يروى عن الفرزدق انه كان يمر عليه زمان وقلع ضررس من أضراره أهون عليه من قول بيت واحد من الشعر ، ويحذر من تقصير الألفاظ ، وينصح بتوخي حسن النسق عند التهذيب ، حتى يكون الكلام آخذاً بعضه بأعناق بعض ، ويدعو إلى تكرار التهذيب ، ومعاودة التنقيح ، وإمعان النظر ، فإذا تأبى عليك لفظ ، فاتركه حتى يأتيك عفواً ، وإذا جمحت بك عبارة ، فدعها حتى تنقاد إليك طوعاً .

وحسن النسق من محاسن الكلام ، وهو : أن يأتي المتكلم بالكلمات من النثر ، والأبيات من الشعر متتاليات متلاحمات تلاحماً سليماً مستحسنات وتكون جملها ومفرداتها متسقة متوالية ، إذا أفرد منها البيت قام بنفسه ، واستقل معناه بلفظه ، كقول شرف الدين القيرواني :

جاور علياً ، ولا تحفل بحادثة إذا أدّعت فلا تسأل عن الأسئل (٢)
سلى عنه ، وانطق به ، وانظر إليه ، نجد ملء المسامع ، والأفواه ، والمقل

فالحظ حسن النسق ، واستيعاب هذا التقسيم ، ومراعاة النظير بين كلمات المسامع والأفواه والمقل ، وكلها تدخل تحت ما يسمى بعلم البديع .

٢

البديع ليس ترفاً في الأسلوب الأدبي ، أو حلية تكون بمثابة الفضول التي يستغنى عنها ، حتى يكون مكانه في المؤخرة من عناصر العمل الفني ، ولا هو يأتي بعد استيفاء البلاغة لعلمي المعاني والبيان ؛ بل منزلته لا تقل شأناً عنهما ، وأستميح القارئ العذر إذا قلت : إن مرتبته في المقدمة منهما ، لأنني أخشى أن أتهم بسوق الكلام دون دليل .

(١) خزائن الأدب ابن حجة الحموي ص ٢٣٦ ط ١ .

(٢) ادّعت : غدت في المسير وأظلمت ، والأسئل : الرماح .

وليس الحديث هنا بالطبع عن كل ما ذكره علماء البديع من محسنات ، فكثير منها لا يستحق الذكر ، وكثير منها طرحه أفضل من الإبقاء عليه - كما سنوضح فيما بعد - وكثير منها يجني على فن القول ، فيستغل بسببه المعنى ، وتضيع فيه البهجة ، خاصة اذا وصم بالتكلف وعشوة التعسف ، فيقتصر في الكلام اقتساراً . ليس هذا هو المراد بالبديع الذي عرفه المتقدمون من العلماء ، وإنما عرفوا البديع الذي يأتي موضعه ؛ ليقوم بدوره في أداء المعنى ، فيقف جنباً إلى جنب مع الصور البيانية ، وترتيب مواضع الكلمات .

القرآن فيه كثير من صنوف البديع : كالجناس ، والطباق ، والمقابلة ، واللف والنشر ، والعكس والتبديل ، وغيرها مما يعرفه دارسو البلاغة ، هذه الأنواع البديعية لم تكن فضولاً من القول ، ولم تأت لمجرد الزينة ، وإنما دعاها المعنى ، دعاها دون غيرها من الألفاظ ، فاذا استقرت في مواضعها ، كان للمعنى جلاء وبياناً ، وللكلام فضلاً وتأثيراً ، وأمثلة هذه المحسنات البديعية من القرآن غنية عن الذكر والبيان .

صاحب الطراز (ت ٧٤٩ هـ) يدرك قيمة البديع وامتزاجه بين علوم البلاغة ، فيجعله رحيق علمي المعاني والبيان الذي تتركز فيه الحلاوة ، ويتجمع فيه السكر ، فهو خلاصة الخلاصة ، وصفو الصفو ، يستهل حديثه عن علم البديع فيقول : « أعلم أن هذا الفن من التصرف في الكلام مختص بأنواع التراكيب ، ولا يكون واقعاً في المفردات ، وهو خلاصة علمي المعاني والبيان ، ومصاوص سكرها ... وعلم البديع هو تابع للفصاحة والبلاغة ، فاذن هو صفو الصفو ، وخلاص الخلاص ، وبيان ذلك : هو أن العلوم الأدبية بالاضافة إلى حاجته إليها ، وترتبه عليها على خمس مرات ، كل واحدة منها أخص من الأخرى ، وهو الغاية التي تنتهي إليه كلها » (١) .

ويعني بالعلوم الأدبية الخمسة :

علم اللغة ، وعلم التصريف ، وعلم الإعراب ، وعلم المعاني ، وعلم البيان .

(١) الطراز العلي ٣/٣٤٧ ط المقطف .

فكل منها يأتي في المرتبة التي تلو سابقه ، لخصوصيته يفتقدها الأول ، فإذا انتهينا إلى البديع - وهو ما لا نصل إليه إلا بعد إحراز ما سلف من العلوم الأدبية - حزنا خلاصتها وصفوها ونقاءها ، فهي : - العلوم الأدبية الخمسة - وصلة إلى البديع ، وهو منتهى أمرها وغاية شوطها ، اذ (ليس وراء عبادان قرية) .

٣

من هذا المنطلق لمنزلة البديع ، تفنن الشعراء في صيغ أشعارهم بالصبغة البديعية ، كما تفنن الكتاب في توشية عباراتهم بالزينة اللفظية ، ليقولوا شعراً يطرب ويعجب ، أو يكتبوا نثراً يبهج ويخلب ، كانت هذه غايتهم : أن يقولوا كلاماً حسناً بديعاً في أسلوب شائق جميل ، يأتي عفواً بلا تكلف ، فاجتمعت لديهم صور بيانية من تشبيه واستعارة وكناية ، يقف بإزائها محسنات بديعية من جناس وطباق ومقابلة ، بعضها يؤازر بعضاً ، فأطلق عليهم النقاد شعراء البديع ، كما أطلقوا على أداتهم في التعبير : اسم البديع ، وأصبحت السمة المميزة لعصر التجديد الذي استهله بشار ، ومسلم ، وأبو نواس ، ومن بعدهم أبو تمام ، هي البديع الذي يشمل الصور البيانية والمحسنات البديعية دون تفرقة بين هذه وتلك ، فكلاهما بديع ، وكلاهما يخلع الحسن على الألفاظ الشعرية ومعانيها ، فتغير بذلك وجه الشعر تغيراً كاملاً .

وطبيعي أن هذا البديع لم ينشأ في هذا العصر من لا شيء ، وإنما كان معروفاً من قبل ، يأتي عفواً بلا تكلف ، وقد أورد ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) نماذج مختلفة من هذا الأسلوب البديعي^(١) القائم على تزيين الشعر بالمحسنات الكثيرة ، لا من أقوال الشعراء في العصر العباسي الذين حملوا لواء التجديد في الشعر ؛ بل يعرض أيضاً نماذج من الشعر الجاهلي والإسلامي وأقوال الصحابة ؛ بل من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم ، مما يدل على أن البديع في حد ذاته - سواء قلّ أو كثر - ليس فضولاً يمكن الاستغناء عنه ، ما دام يستعمل في موضعه اللائق به من الكلام ، أما إذا تكلفه القائل واقتصره اقتساراً ، سواء كان قليلاً أو

(١) انظر كتاب البديع لابن المعتز باب التجنيس على سبيل المثال ط دار العهد الجديد .

كثيراً ، فهو حينئذ لا يشوّه جمال الكلام فحسب ؛ وإنما أيضاً يفسد المعنى ، ويصيب التركيب بالخلل .

وحين أقول : إن البديع لا يشين الكلام إذا استعمل قلة أو كثرة لا ألقى الكلام على عواهنه ، فأنا أحيلك على باب الإبداع ، وما قاله ابن أبي الأصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ) في كتابه « بديع القرآن » عن قوله تعالى : (وقيل يا أرض أبلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين) سورة هود ٤٤ قال : إنه استخرج من هذه الآية واحداً وعشرين ضرباً من البديع وعددها : سبع عشرة لفظة^(١) ، وذكر منها المناسبة التامة في ابلعي وأقلعي ، والمطابقة اللفظية في ذكر السماء والأرض ، وصحة التقسيم حين استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حال نقصه ، وحسن النسق في عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولاً فأولاً ، والتسليم ؛ لأن من أول الآية إلى قوله تعالى : (وأقلعي) يقتضي آخرها ، والانسجام ، وهو : تحدر الكلام بسهولة وعلوبة سبك ، مع جزالة اللفظ ، كما ينسجم الماء القليل مع الهواء .

ويعقب على ذلك بأن في كل لفظة بديعاً وبديعين ؛ لأنها كما تقدم سبع عشرة لفظة تضمنت واحداً وعشرين ضرباً من البلاغة ، سوى ما يتعدد من ضروبها . وغني عن البيان أن مفهوم البديع عنده كلمة تشمل علوم البلاغة كلها من معان وبيان وبديع .

وليس ابن أبي الأصبع وحده الذي استخرج هذه الكثرة من ضروب البديع في الآية القرآنية ، فكل من تناول هذه الآية من علماء البلاغة ألقى فيها بدلو ، فقد وصف الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ) هذه الآية فقال : « إن علماء البيان استفصحو هذه الآية ووقفوا لها رؤوسهم »^(٢) .

وهذا هو التويري (ت ٧٣٣ هـ) يتحدث عن الإبداع وهو : « أن يؤتى في البيت الواحد من الشعر ، أو القرينة الواحدة من النثر بعدة ضروب من البديع

(١) بديع القرآن ابن أبي الأصبع المصري ص ٣٤٠ - ٣٤٢ ط نهضة مصر .

(٢) الكشاف ٣١١/٢ ط الاستقامة .

بحسب عدد كلماته أو جملة ، وربما كان في الكلمة الواحدة المفردة ضربان من البديع ، ومتى لم تكن كل كلمة بهذه المثابة ، فليس بإبداع^(١) فهو ينقل كلام ابن أبي الأصبح الذي ذكرناه سابقاً في الآية القرآنية .

فالحمد أو الذم قد يصحب الإفراط أو الاقتصاد في طلب البديع ، فليس في الإفراط ذم مطلق ، ولا في الاقتصاد حمد دائم ؛ وإنما المعيار بنهوض الطبع بما يُحتمل به من جهة ، أو الجري وراءه واقتناصه لمجرد إظهار البراعة والغرابة من جهة أخرى .

إذن فالكثرة التي تفسد البديع هي الكثرة المتكلفة التي يلجأ إليها صاحبها ليريك مدى مقدرته في رصف المحسنات بعضها بجوار بعض ، وإن لم تحمل في وضعها من بنية الكلام شيئاً ذا بال ، فنشعر أننا إزاء شيء غث لا فائدة فيه .

وليس هذا التكلف - أباً كانت صورته - مفسداً للبديع وحده ؛ بل هو مفسد للبيان أيضاً ، وما صور التعقيد المعنوي « والمعازلة : وهي فاحش الاستعارة »^(٢) إلا من هذا القبيل .

ومفسد للمعاني أيضاً حين تقدم أو تؤخر في غير موجب للتقديم أو التأخير فيؤدي إلى انغلاق المعنى ، كما هو الشأن في التعقيد اللفظي . ومفسد للأدب كله ؛ لأنه موات ألفاظ ليس وراءها حياة .

إن البديع الذي بدأ على يد ابن المعتز في ثمانية عشر لوناً : خمسة من البديع وثلاثة عشر من المحسنات ، تضم في جملتها صور البيان ، زاد زيادة مفرطة حتى بلغ على يد ابن أبي الأصبح مائة وستة وعشرين لوناً في كتابه « تحرير التحبير » بعد أن أضاف إليها بعض أبواب المعاني ، ولا أحدثك عن البديعيات التي يتضمن كل بيت منها محسناً من محسنات البديع ، وإزاء كل بيت المحسن الذي يشير إليه ، كبديعية صفي الدين الحلبي (ت ٧٥٠ هـ) التي تضمنت مائة وخمسين محسناً ، ولا عن بديعية عز الدين الموصلي (ت ٧٨٩ هـ) الذي زاد على سابقه

(١) نهاية الأرب النويري ١٧٥/٧ - ٧٧ ط دار الكتب .

(٢) الصناعيتين أبو هلال العسكري ١٦٣ ط عيسى الحلبي .

شيئاً من اختراعه ، ولا عن بديعية ابن حجة الحموي (ت ٨٣٧ هـ) الذي صنف عليها شرحاً مطولاً ، وغيرهم « من الذين وجدوا في كل صيغة بها شيئاً من الغرابة محسناً بديعياً ، أطلقوا عليه اسماً من الأسماء ، مما أحال الكلام في البديع ومحسناته إلى صورة غثة ضررها أكثر من نفعها ؛ لأنها خلطت بديعاً مزيفاً كثيراً بالبديع الحقيقي ؛ بل إن هذا البديع المزيف هو الذي كان يستأثر باهتمامهم »^(١) .

٤

إذا عدنا مرة أخرى إلى ما كانت عليه منزلة البديع عند الأدباء والنقاد في العصر العباسي نرى الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) يجعله مقصوراً على العرب ويعده من خصائص العربية ، وبسببه فاقت لغة العرب غيرها من اللغات ، وعلى هذا الدرب سار ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) في عده المجاز من خصائص العربية - وإن كان يعني بالمجاز طرق القول وماأخذه من بيان ومعان ، وخروج بالكلام عن مقتضى الظاهر - وبسبب هذا المجاز الذي تتميز به العربية لا يقدر أحد من المترجمين نقل القرآن إلى لغة أخرى ، بخلاف غيره من الكتب المساوية التي يمكن ترجمتها ، وعلل ذلك بأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب^(٢) . فكان أقل شططا من الجاحظ حين زعم أن البديع مقصور على العرب ، ومهما يكن من شيء فإن الشاعر إذا ضن شعره شيئاً من البديع ، استحق الثناء ، وحاز قصب السبق ، فالبديع عند الجاحظ « مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأزيت على كل لسان ، والراعي كثير البديع في شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتابي يذهب شعره في البديع »^(٣) فالبديع - إذن - عند الجاحظ من مميزات الشعر ، وليس من سوائه ، وهو بثني على أصحاب البديع ، ولا ينتقص من قدرهم ، وهذا يؤكد أن البديع في ذاته مرغوب إذا أحسن استخدامه ؛ لأنه يعجب السمع ويستهوئ النفس ، ويصبح مصدر جمال قوي رائع . فكانت هذه الكثرة في

(١) البلاغة تطور وتاريخ انظر ص ٣٥٨ - ٣٦٧ د / شوقي ضيف دار المعارف .

(٢) نأويل مشكل القرآن ابن قتيبة ص ١٦ ط عيسى الحلبي .

(٣) البيان والبيان ٥٥/٤ .

استخدام المحسنات البديعية سبباً لعناية النقاد بالبديع ، ومثار الجدل حول أدب
المحدثين والقدامى .

فالمحدثون يستخدمون البديع الذي سبقهم إلى استخدامه القداماء ، ولكن
المحدثين أكثروا منه منذ مسلم بن الوليد ، وبشار ، وأبي نواس ، إلى أن أفرط
في استخدامه أبو تمام ، حتى صار شعره مثار خصومة بين أنصار القديم وأنصار
الحديث ، وذلك « أن جلّ الأدباء والنقاد رأوا في الافتنان في الحلية اللفظية المجال
الأكبر للتجديد ؛ إيماناً منهم بأن الأولين استغرقوا المعاني ، أو أتوا على معظمها ،
ولم يتركوا إلا ما استهين به أو صعب الوصول إليه ، فلم يبق أمام المحدثين شيء
يولعوا به إلا البديع والحلية اللفظية ، فكان الإبداع والإغراب منحصراً في هنا
الميدان ، وتبعهم النقاد ما بين مفتون به وساخط عليه » (١) .

والجديد شيء مألوف في تاريخ الأدب ، فلكل عصر أدبي مميزاته وخصائصه ،
ولكل شاعر سماته وملامحه ، فإذا استنفدت قيم جمالية راهنة ، ظهرت قيمة
جمالية جديدة يحملها لنا أديب أو شاعر ، وليس ضرورياً أن يكون الجديد أفضل
من القديم ، ولكن لا بد من الجديد الذي يأتي في أثر القديم ، هذا الجديد الذي
أصبح شغل الأدباء والشعراء والنقاد في العصر العباسي ، حتى أصبح السمة المميزة
لمدرسة التجديد أو مدرسة البديع . « فعندما انتهى قرض الشعر إلى المحدثين ورأوا
افتتان الناس بالبديع واستغرابهم له ، أولعوا باستخدامه وإيراده ؛ إظهاراً للاقتدار ،
وذهاباً على الأغراب ، فمن مفرط ومقتصد ، ومحمود فيما يأتيه ومذموم ، على
حسب نهوض الطبع به ، أو لكمال البراعة والالتذاذ بالغرابة » (٢) .

•

قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) يرى أن ألوان البديع هي البلاغة ، وفي ذروة
الحسن منها . « وأحسن البلاغة : الترصيع ، والسجع ، واتساق البناء ، والاستقامة ،
وعكس ما نظم من بناء ، والاستعارة ، وإيراد الأقسام موفورة بالتسام ، وتصحيح

(١) الوساطة القاضي الجرجاني ص ٢٠٨ ط القاهرة .

(٢) مقدمة شرح ديوان الحماسة المرزوقي - ص ٩٩ ط تونس .

المقابلة بمعان متعادلة ، وصحة التقسيم .. والمبالغة في الرصف بتكرير الوصف ، وتكافؤ المعاني في المقابلة ، والتوازي ، واردة اللواحق ، وتمثيل المعاني ،^(١) .

والحق أن كلمة البديع في ذلك العصر لم تكن قد اتخذت المعنى الاصطلاحي الذي ساد فيما بعد واستقر الرأي عليه في كتب المتأخرين عند السكاكي والخطيب وأصحاب الشروح ، وأصبح ملازماً لها حتى اليوم ، وإنما كانت تعني عدة أشياء منها : الإكثار من استخدام الصورة ، والإكثار من استخدام المحسنات ، والميل بالمعاني القديمة إلى وجه جديد من الاستعمال مغاير لما جرى عليه العرف . فكلمة البديع تعني التجديد بصفة عامة ، سواء أكان التجديد في الصياغة أو التجديد في المعاني بقلبها أو تغييرها أو تحسينها .

هذه الوجوه البديعية التي أجمالها قدامة يمثل فيها الإيقاع الصوتي الذي يكسب فن القول جمالاً ومتمعة ، ويضفي عليه الروق والبهجة ، لما فيه من تساوي أجزاء الكلام ، وتوازي المقاطع الصوتية ، وكأنها من جنس واحد ، كقول أبي المثلّم :^(٢)

لو كان للدهر مالٌ كان مُتِلِدُهُ	لكان للدهر صخرٌ ، مالٌ قُتِيان
أبى الهزيمة ، نابٍ بالعظيمة ، مِتْ	لافُ الكريمة ، جلدٌ غيرُ نُتِيان
حامِي الحقيقة ، نَسَّالٌ الوديقة ، مِعْ	ساقُ الوسيقة لاسِقِطٌ ولا وان
هَبَّاطٌ أودية ، حَمَّالٌ ألوية	شهادٌ أندية ، مِرْحانٌ فِتِيان
يعطيك ما لا تكاد النفس تُرسلُهُ	من التِلادِ وهوبٌ غيرُ مَنان

فأجزاء البيت متساوية مسجوعة ، راعى فيها الشاعر التوازن الصوتي بين الكلمة وأختها ، « وأكثر الشعراء المصيين من القدماء والمحدثين قد غزوا هذا المغزى ، وإنما يحسن إذا اتفق في البيت موضع يليق به ، فإنه ليس في كل موضع يحسن ، ومن الشعراء القدماء والمحدثين من قد نظم شعره كله ووالى بين أبيات كثيرة منه ، منهم أبو صخر الهنلي ، فإنه أتى من ذلك بما يكاد لجودته أن يقال فيه إنه غير متكلف .. والرسول صلى الله عليه وسلم كان يتوخى في كلامه مثل ذلك ، ويورد

(١) جواهر الألفاظ ص ٣ ط محيي الدين - قدامة .

(٢) نقد الشعر ص ٤٩ قدامة ط الخانجي .

قدامة بعض الأحاديث النبوية التي يذهب فيها إلى المقاربة بين الكلام بما يشبه بعضه بعضاً ، منها : (خَيْرُ الْمَالِ سَيِّئَةٌ مَأْبُورَةٌ وَمُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ) فقال : مأبورة من أجل مأبورة ، والقياس : مؤمّرة ، وإنما عدل عن القياس لاتباع الكلمة أختها في الوزن . وإذا كان هذا مقصوداً في الكلام المنشور ، فاستعماله في الشعر الموزون أقسن وأحسن ^(١) .

وفي حديثه عن التكافؤ ^(٢) ، ويعني به كل صور التقابل ، نراه ينحى ناحية عملية ؛ لبيان أثره في تجديد الشعر ، ويسوق بيت بشار :

إذا أيقظتك حروب العدا فبّه لها عمراً ثم نم
« فبه ونم » تكافؤ ، وله أثر في تجديد الشعر قوي ، فإنه لو قال مثلاً :
« فجرد لها عمراً » لم يكن لهذه اللفظة من الموقع مع نم ما لبّته .

ومثل : « كدر الجماعة خير من صفو الفرقة » ؛ لأنه لما قال : كدر ، قال : صفو ، ولما قال : الجماعة ، قال : الفرقة .

هذه المقابلات قد نظمت بحيث يوضع بعضها بإزاء بعض ، وتتوازن كل كلمة مع أختها ، فيكون للكلام وقع في السمع وحلاوة في النفس ، فإذا تجرد الكلام من هذا التوازن الحادث من المطابقات ، تجرد من الجودة ، وإن كان صحيحاً . فابن دريد حين ينشد لبعض الشعراء :

طرفتكَ عَزَّةً من مزارٍ نازحٍ يا حسن زائرة وبعْدَ مزار

نلاحظ عدم التطابق بين « حسن زائرة وبعْدَ مزار » مما أفضى إلى نفرة الإيقاع وعدم الجودة ، « يقول ابن دريد : لو قال : « يا قرب زائرة وبعْدَ مزار » لكان أجود ، وكذلك هو لتضمنه الطباق » ^(٣) .

(١) انظر نقد الشعر ص ٤٦ - ٥٠ .

(٢) انظر نقد الشعر ص ١٤٦ وجواهر الألفاظ ص ٧ .

(٣) الصناعتين المسكري ص ١٣٩ ط عيسى الحلبي .

وكلما تعددت المقابلات بين شطري البيت الواحد ، زاد الإعجاب به ؛
لحسن جرسه في السمع ، فإذا اكتملت المقابلات ، اكتمل الحسن ؛ لتمائل
الإيقاع بين جميع أجزاء الشطرتين ، فالناس كانوا يعجبون ببيت البحري :
وأمة كان قبح الجور يسخطها دهرأ فأصبح حسن العدل يرضيها
لأنه جمع بين ثلاث مقابلات ، حتى جاء أبو الطيب فزاد عليه مع رشاقة
الصنعة بقوله :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي^(١)
وقد أتى المحدثون من التكافؤ بأشياء كثيرة ، وهو مع أهل الحصيل والروية
في الشعر ، أولى منه بطباع القائلين على الهاجس بحسب ما يسمح به المخاطر .

٦

مدرسة التجديد وعلى رأسها أبو تمام ، كانت صاحبة مذهب في الشعر ،
ولها أسلوب فريد تميزت به عن غيرها ، ولسنا بصدد تقييم هذا الأسلوب وبيان
ما فيه من الجودة أو الرداءة ، ولكن هذه المدرسة لم تحاول التجديد في مضمون
الشعر وجوهره ، وإنما حاولت التجديد فيما يسمى بالبديع ، أي في طريقة الصياغة
الشعرية ، فتمردت على المألوف ، وأفرطت في توشية الشعر بالزخارف اللفظية
والمحسنات البديعية ، فخرجت عن مدرسة عمود الشعر ، التي يمثلها البحري ،
وأدت هذه المدرسة إلى ظهور علم جديد ، هو علم البديع على يد ابن المعتز (ت
٢٩٦ هـ) .

وكلمة عمود الشعر ما تزال مهمة على كثير من القراء ؛ لعدم تحديد معناها
في الأذهان ، رغم أن النقاد يرون معيار الجودة في القصيدة الشعرية رهناً بما يتحقق
من ذلك العمود . فما معنى عمود الشعر ؟

إنه محصلة لسبع خصائص يجب أن تتوافر ، وبقدر توافرها يكون نصيب

(١) أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه ... التعاليف ... ص ٣١ ، ٣٢ ط ١٩١٥ .

الشاعر من التقدم والإحسان . وهي كما قال المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) :

« أن يكون المعنى صحيحاً ، وأن يكون اللفظ جزلاً مستقيماً ، وأن يكون الوصف صادقاً ، وأن يكون التشبيه قريباً ، وأن تكون الاستعارة مناسبة ، وأن تكون الأجزاء ملتصقاً بعضها ببعض ، وأن تجيء القافية متساوقة مع اللفظ والمعنى على صورة طبيعية لا تكلف فيها »^(١) .

هذا الخروج عن عمود الشعر هو الذي أثار كبار النقاد ، وعدوه سبباً لطمس المحاسن ، كالذي نجده كثيراً في شعر أبي تمام ، والكلام هنا للقاضي الجرجاني (ت ٣٦٦ هـ) - فإنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير اللفظ ، فقبح في غير موضع من شعره .. ثم لم يرض بذلك حتى أضاف إليه طلب البديع فتحمله من كل وجه ، وتوصل إليه بكل سبب (لاحظ هنا تكلف أبي تمام في طلب البديع) ولم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتلب المعاني الغامضة ، وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غثّ ثقیل ، .. فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع ، لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر ، وكذّ الخاطر .. ، فإن ظفر به فذلك من بعد العناء والمشقة وتلك حال لا تهتر فيها النفس للاستمتاع بحسن ، أو الالتذاذ بمستطرف ، وهذه جريرة التكلف^(٢) .

ورغم أن الجرجاني من النقاد الذين يدينون بتفضيل أبي تمام وتقديمه على غيره من الشعراء ، واعتباره قبله أصحاب المعاني ، وقدوة أهل البديع ، إلا أنه كان قاضياً يتبع الحق ويتحرى العدل فيما يحكم به ، فالذي يغبطه من أبي تمام أن يراه متكلفاً في اجتلاب المعاني الغامضة ، أو في طلب البديع . فالتكلف في طلب البديع من الأسباب التي تهجن شعر أبي تمام ، وليس البديع حين يأتي عفواً لا تكلف فيه . « فالتفاضل بين الشعراء عند العرب يكون في الحرص على عمود الشعر ، واستخدام البديع على غير عمد وقصد ، فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ، ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن ، وتميزها عن أخواتها في الرشاقة

(١) مقدمة شرح ديوان الحسانه المرزوقي - ص ٥٩ - ٧٨ ط تونس .

(٢) الوساطة ص ١٩ ط عيسى الحلبي .

واللطف ، تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه البديع ، فمن محسن ومسيء ، ومحمود ومذموم ومقتصد ومفرط» (١) .

فكما يكون استخدام البديع علة للاساءة والذم ، يكون أيضاً من دواعي الحسن والحمد ، فالعبرة - إذن - في معالجة البديع وطريقة استخدامه ، وليست العلة في البديع نفسه ، فهذا مصيب ، وهذا مخطئ ، وهذا حسن . وهذا رديء .

والآمدي (ت ٣٧٠ هـ) يلحظ أن البحري يكثر من استعمال البديع في شعره ، إلا أنه لم يفارق عمود الشعر وطريقته المعهودة ، فانفرد بالحسن في العبارة ، والاستقامة في المعنى . « فقد حصل للبحري أنه ما فارق عمود الشعر ، وطريقته المعهودة ، مع ما نجده في شعره من الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، وانفرد بحسن العبارة ، وحلاوة اللفظ ، وصحة المعاني ، وحتى وقع الاجماع على استحسان شعره ، وروى شعره واستحسنه سائر الرواة على طبقاتهم واختلاف مذاهبهم » (٢) .

أما أبو تمام فقد كان يتكلف البديع فيخرج إلى المحال ، ولا تكاد تخلو له قصيدة واحدة يكون فيها مخطئاً أو مخيلاً .. أو مفسداً للمعنى الذي يقصده بطلب الطباق ، والتجنيس ، أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم (٣) .

وثمة نص واضح صريح ينقله الآمدي عن ابن مهرويه يبين أن المعيار في قبح البديع أو حسنه إنما مرده إلى التكلف في طلب البديع أو عدم التكلف ، فإذا جاء عفواً غير مستكره ، ضمن لصاحبه التقدم على سائر شعراء عصره : « فإن أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ، وإن أبا تمام تبعه فسلك في البديع مسلكه فتحير فيه ، كأنهم يريدون إغراقه في طول طلب الطباق والتجنيس والاستعارات ، وإسرافه في التماس هذه الأبواب وتوشيح شعره بها .. ولو كان أخذ عفواً هذه الأشياء ، ولم يوغل فيها ، ولم يجاذب الألفاظ والمعاني مجاذبة ، ويقتسرها مكارهة ،

(١) الوساطة ص ٣٤ ط عيسى الحلبي .

(٢) الموازنة - الآمدي - ١٨/١ ، ١٩ ط دار المعارف .

(٣) الموازنة الآمدي ٥٠/١ .

وتناول ما يسمح به المخاطر .. لظننته كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر أكثر الشعراء المتأخرين « (١) .

فأبو تمام كان مفتوناً بالبديع شديد الغرام بالطباق والتجنيس والمماثلة ، يسعى إليها جاهداً ليرضع بها شعره ، ولا يبالي بعد ذلك بشيء ، فيستوي عنده التعبير عن المعنى بلفظ ضعيف أو لفظ قوي ، فكان شأنه شأن من يعمل التطريز في ثوب خلق ، فيتلمس الزخارف والمحسنات ليحلي بها المعاني القديمة المستهلكة والتي دارت على ألسنة الشعراء من سابق إلى لاحق . فالكلف في البديع وتبعه وطغيانه على الأسلوب يطمس معالم المعنى ، أو يخفيه ، أما استعمال الزينة بقدر وفي موضعها ، فلا يزيد وجه الكلام إلا نضارة وحسناً ، والآمدى يفرده عدة صفحات لما جاء في شعر أبي تمام من قبيح الجناس - وأذكر الجناس على سبيل المثال - فيقول : « واعتمده الطائفي ، وجعله غرضه ، وبنى أكثر شعره عليه ، فلو كان قلل منه واقتصر على بعض أمثله المتجانسة المستعذبة اللائقة بالمعنى ، لكان قد أتى على الغرض ، وتخلص من العيب » (٢) . ثم يعمم الحكم على البديع بالقبح إذا أحاط بالكلام من أقطاره كافة فيقول : « والشاعر قد يعاب أشد العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره ، وبالإبداع جميع فنونه ، فإن مجاهدة الطبع ، ومغالبة القريحة مخرجة سهل التأليف إلى سوء التكلف وشدة العمل ... ؛ لأن لكل شيء حداً إذا تجاوزه المتجاوز سمي مفرطاً ، وما وقع الإفراط في شيء إلا شأنه ، وأحال إلى الفساد صحته ، وإلى القبح حسنه وبهائه » (٣) .

ومن نافلة القول أن أشير إلى فئة من النقاد أعجبتهم طريقة أبي تمام في طلبه البديع على إطلاقه ، فانتصروا لمدرسة التجديد ولأبي تمام ، واستحسنوا منه البديع ، وعدوه سبياً في إحالة المعنى القديم إلى شيء مستطرف حديث .

يقول الصولي (ت ٣٣٥ هـ) « فلو جاز أن يصرف عن أحد من الشعراء سرقة ، لوجب أن يصرف عن أبي تمام ؛ لكثرة بديعه ، واختراعه ، واتكائه على

(١) الموازنة / ١٣٥/١ .

(٢) الموازنة / ٢٦٧/١ .

(٣) الموازنة / ٢٤٤/١ .

نفسه .. ومتى أخذ معنى زاد عليه ووشحه ببديعه وتسم معناه فكان أحق به « (١) » .

فإذا كنا نجد قوماً يعيرون على أبي تمام إفراطه في استعمال البديع ، ويتهمونه بالإحالة وإفساد الشعر كالأمدي في الموازنة ، فإننا نرى الصولي في أخبار أبي تمام يدفع عنه هذه التهمة ويبين فضله ؛ لاستعماله البديع في المعاني القديمة المألوفة ، فيحيلها إلى شعر جديد ينسب إلى أبي تمام وحده ، ويرى ساحة من تهمة السطو ؛ لأنه أحق به من غيره .

فاستعمال البديع له من النقاد من يؤيده ، وله من يفتده ، ولكن التأييد والتفنيد لم يلمس جوهر البديع وحقيقته ، وإنما لمس التكلف والإفراط فيه دون دواع تستوجب استخدامه من جلاء للمعنى ، أو أنس للنفس . فإذا كان للبديع أثر في النفس ووقع في السمع ، كانت الحاجة إليه أوجب والعدول عنه تقصير . فهذا ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) يوضح لنا أثر السجع في ضرب الأمثال ووقعه في السمع : « ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعاً ، لذّ لسامعه فحفظه ، فإذا هو حفظه كان جديراً باستعماله ، ولو لم يكن مسجوعاً لم تأنس النفس به ، ولا أنقت لمستمعه ، وإذا كان كذلك لم تحفظه ، وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ما وضع له ، وجيء به من أجله » (٢) .

والمرزوقي (ت ٤٢١ هـ) يرى في توشية الشعر بشيء من البديع مشقة وصعوبة على الشاعر البليغ أكثر مما يراها في الكشف عن المعنى بمختار من اللفظ يسابق فيه الفهم السمع ؛ فنس البلغاء من يقول : فقر الألفاظ وغررها كجواهر العقود ودررها ، فإذا قام بتحسين نظومها ، راق مسموعها ومضبوطها ، فيموج في حواشيا رونق الصفاء لفظاً وتركيباً مسا يقبله الفهم وبلتذ به السمع ... ومن البلغاء من ترقى إلى ما هو أشق وأصعب ، فلم تقنعه هذه التكاليف في البلاغة حتى طلب البديع من الترصيع والتسجيع والتطبيق والتجنيس والعكس والاستعارة ... إلى وجوه آخر تنطق بها الكتب المؤلفة في البديع ، فإني لم أذكر هذا القدر إلا دلائل على أمثالها ،

(١) أخبار أبي تمام الصولي ص ٥٣ . ١٠٠ ط ١٩٣٧ .

(٢) الخصائص ابن جني ٢١٦/١ ط دار الكتب .

ولكل مما ذكرته وما لم أذكره رسم من التفوذ والاعتلاء^(١) .

وليس ثمة ما يدعو إلى التأكد من البديع ورشاقته إذا أحسن استعماله ، وقبحه وثقله إذا كان متكلفاً متصنعاً من قول الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) حين يعقد مقارنة بين البحري وأبي تمام^(٢) ، فكلاهما يستخدم البديع ويفرط فيه ، إلا أنه حسن عند الأول ، قبيح عند الثاني ، وربما أسرف - يقصد أبا تمام - في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها ، حتى استثقل نظمه ، وكان التكلف بارداً ، والتصرف جامداً ، وأما البحري فإنه لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام ، ويقل التصنع له ، فإذا وقع في كلامه كان في الأكثر حسناً رشيقاً ، وظريفاً جميلاً ، وتصنعه للمطابق كثير حسن ، وتعمقه في وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة في السلاسة ، فلذلك يخرج سليماً من العيب في الأكثر . ثم يصف البديع بأنه باب من أبواب البراعة ، وجنس من أجناس البلاغة ، وأن القرآن لا ينفك عن فنون البلاغة (البديع) وإذا وضع هذا الموضع كان جديراً .

٧

فإذا انتهينا إلى امام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) نراه يصبوب بصره إلى المعنى وهو يتناول التجنيس^(٣) : فالقبيح من الجناس هو الذي لم يزدك على أن أسمعت حروفاً مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكورة . والحسن منه هو الذي يعيد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووقاها ، لا فرق في هذا الحسن بين الجناس التام والجناس الناقص ، وبهذا المعيار يعد التجنيس من حلى الشعر ومذكوراً في أقسام البديع ، ففضل التجنيس مرهون بنصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده ، لما كان فيه مستحسن ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن .

ويبدو أن الشعراء في عصر عبد القاهر لشدة ولعهم بالبديع قد أفرطوا في

(١) مقدمة ديوان الحساب للسرزوقي ص ٣٩ - ٤١ .

(٢) إعجاز القرآن الباقلاني ص ١١٠ ، ١١٢ ط دار المعارف .

(٣) أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني - فصل في التجنيس ١١ - ٢٥ ط الاستقامة .

استخدامه ، حتى إن الواحد منهم ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبن ، ويخيل إليه أنه إذا جمع أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء ... كمن تقل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها .

وليسمح لي القارئ أن أنقل إليه سطوراً في هذا المعنى عن موقف عبد القاهر من البديع كتبها منذ ثلاث عشرة سنة في رسالتي عن أثر النحاة في البحث البلاغي^(١) : ذكر عبد القاهر ألواناً من البديع دون أن يخوض في جميع الألوان التي كانت معروفة وشائعة عند السابقين مثل : التجنيس ، والسجع ، والتطويق ، وحسن التعليل ، والتجريد ، والمزاوجة ، والتقسيم ، وخصوصاً التقسيم ثم الجمع . ويرى أن البديع يساعد على فضيلة الكلام حين لا يكون متكلفاً خالياً من الفائدة ، ولا يقصد به غير الزخرف والزينة ، فإذا أتى عفو الخاطر ، أو كان المعنى هو الذي يطلبه ويستدعيه ، فإنه يقرر أنه « يكون أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ، وأحقه بالحسن وأولاه ، بل إنه لو رام تركهما - التجنيس والسجع - إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع ، لدخل من عقود المعنى وإدخال الوحشة عليه .. »

والحسن والقيح في البديع عند عبد القاهر ليس مرده إلى اللفظ ، لأن الألفاظ ليس لها نصيب من الحسن ، وإنما العبرة بالمعنى الذي لا ينشأ إلا عن النظم (الأسلوب) ولذلك فإنه يفرق بين تجنيس قبيح كتجنيس أبي تمام :

ذهبت بمذهبه الساحة فالتوت فيه الظنون أمذهب أم مذهب
وتجنيس حسن كتجنيس البستي :

ناظراه فيما جنى ناظراه أو دعاني أمت بما أودعاني

لأن الفائدة ضعفت في الأول ، وقويت في الثاني ، ففضيلة التجنيس لا تتم إلا بنصرة المعنى ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به .

وكما ينكر عبد القاهر التكلف في البديع والشغف به ، فإنه ينكر أن يتطلبه

(١) انظر أثر النحاة في البحث البلاغي - عبد القادر حسين - موقف عبد القاهر من البديع ط نهضة مصر .

المعنى ثم نغفل عنه ذكره ؛ لأن المعنى هو الذي يقود إليه ويستشرف له ، فإهماله في هذه الحالة شبيه بتكلفه حين لا يدعو إليه المعنى ، فيكون تجنباً مستكراً وسجماً نافراً ، فإذا توافرت هذه المحسنات البديعية مع حسن النظم يكون قد قرى الحسن من الجهتين ، ووجبت له المزية بكلا الأمرين .

فالبديع - إذن - عند عبد القاهر لا يستقل باللفظ ، وإنما يندوب داخل النظم ، إلا أنه يضيف إلى جماله جمالاً ، وتزيد به الفضيلة ارتقاء ، فيعمل عمل السحر في الكلام ، فإذا هو النمط العالي ، والباب الأعظم الذي لا ترى سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه . انتهى .

وإذا أردنا أن نستشهد بأقوال العلماء من النقاد والبلاغيين في حسن البديع ، لضاق بنا المجال ، وعمدنا إلى الإطالة والتكرار ، وفيما ذكرناه غناء عن كل كلام .

ولكن يكفي أن نحيل القارئ إلى ما قاله الباقلاني في الفصل الذي عقده « في ذكر البديع من الكلام »^(١) .

إن سألت سائل فقال : هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنته من البديع ؟

يعني بذلك البديع على إطلاقه كما ساد في عصره من صور بيانية : كالتشبيه والاستعارة والكناية ، ومحسنات بديعية ، كالتجنيس والمطابقة والمقابلة والموازنة ، والغلو والمبالغة ، ورد العجز على الصدر ، وصحة التقسيم ، والترصيع ، والعكس والتبديل ، وتأكيده المدح بما يشبه الذم وغيرها .

فوجوه البديع كثيرة جداً كما يقول الباقلاني ، ولكنه اقتصر على بعضها فليس من غرضه ذكر جميع أنواع البديع ، ولكنه بعد أن ينتهي من ذكر هذه الوجوه من البديع يعقب على ذلك بقوله :

وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي

(١) إعجاز القرآن ص ٦٦ ط دار المعارف .

نقلناها ، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه ، يعني بذلك الرماني الذي اعتبر البلاغة (البديع) من وجوه إعجاز القرآن^(١) .

وليس كذلك عندنا ؛ لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها .

فإلى هذه الغاية استطاع البديع أن يتسنى ذروة البلاغة حتى عدّه قوم أنه من وجوه الإعجاز في القرآن . وانظر إلى أي مدى كان احتفاء العلماء بالبديع ، وإدراكهم لمزركته التي حفزتهم إلى القول بأنه من دواعي الإعجاز ووجه من وجوهه .

والباقلاني وإن كان يرفض أن يكون البديع - سواء كان صورة بيانية أو محسناً بديعياً - وجهاً من وجوه الإعجاز ؛ لأن البديع يمكن التوصل إليه بالتدريب والتعود ، إلا أن البديع عنده باب من أبواب البراعة ، وجنس من أجناس البلاغة ، وأن القرآن لا ينفك عن بلاغة العرب ، وإذا وضع في موضعه كان جديراً .

وبعد ، أن الشعر عند العرب صناعة ، ولهذه الصناعة قوانينها التي تتحكم في الشكل والإطار الخارجي ، فتجعل منه شعراً جميلاً أو قبيحاً ، لذلك كان اهتمام العرب بالجمال الشكلي لا يقل عن اهتمامهم بالمحتوى الداخلي ، وحين كان الشعر مرتبطاً بالسمع ، كان اعتماده في الدرجة الأولى على التناسق والتوازن والتماثل والتطابق والتقابل الذي هو سبيل إلى التلاؤم ، والتناظر وغيرها ، مما ينطوي تحت لواء شيء واحد يمكن أن نطلق عليه كلمة الإيقاع الموسيقي ، ألا ترى أن الألفاظ في الأسماع لا يقل وقعها في النفس عن الصور في الأبصار ؟ .

٨

وإذا كان البديع عند النقاد القدامى قد ظفر بهذه الحفاوة البالغة واعتبر دليلاً على كمال البراعة واتقان الصناعة حتى عدّه قوم من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، فقد اختلفت الرؤية عند النقاد والدارسين المعاصرين ؛ لأن الشعر لم يعد يكتب لينشد على الخلفاء في القصور ، أو الجماهير في الأسواق كما كان في

(١) النكت في إعجاز القرآن - الرماني - ص ٧٠ ط دار المعارف .

القديم ، وإنما يكتب ليقرأ ، فنأخذ منه حصيلة فكرية ، أو صورة اجتماعية ، أو شحنة انفعالية مما لا يحتاج إلى تزويق أو تجميل . إن الشعر أصبح صورة ترى ، وليس نغمًا يسمع ، صوراً تتملأها العين ، ولا يقف بإزائها السمع ، لذلك نظر النقاد المعاصرين للبديع نظرة استخفاف وازدراء على خلاف نظرهم لعلمي المعاني والبيان . فالبديع « لا يخرج عن كونه محسنات لفظية عقيمة ، والاهتمام به كان من الأسباب الرئيسية التي حولت مجرى الأدب العربي كله إلى زخارف لفظية سخاوية من كل معنى عميق ، أو إحساس صادق .

على حين يعتبر علم البيان وسيلة أكيدة من وسائل التصوير الأدبي ؛ بل الخلق الجمالي عن طريق التشبيهات والاستعارات والمجازات ، أي : الصور الأدبية التي تميز الأدب كفن تصويري عن غيره من أنواع الكتابة التقريرية . وعلى حين يعتبر علم المعاني دراسة للتراكيب اللغوية ، وطرق الأداء والتلوين الفكري والعاطفي^(١) .

وأظن أن هذا القول فيه كثير من التجني على البديع : فإذا كانت الكتابة التقريرية لا تدخل في مجال الأدب ؛ لافتقارها إلى التصوير ، الذي هو من خصائص الأدب ، فهي قادرة على الإمساك بزمام التعبير والإفهام ، وذلك قدر يسير من الفضائل المتعددة التي تدخل ضمن دائرة علم المعاني ، وعلم المعاني هو : أحوال اللفظ العربي الذي يعرف به مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال كما يقول علماء البلاغة ، فهو - إذن - لبّ البلاغة وأساسها ، ولذلك فإن الكتابة التقريرية لا تعطينا شعراً مميزاً ، أو نثراً فنياً ملحوظاً .

حقيقة أن الكتابة التقريرية وعلم المعاني يشتركان في الإفهام والتعبير عن القصد ، وأخشى أن يسرع إلى خاطرك أن علم المعاني يتعلق بإفهام المعنى والتعبير عنه ، وتقف مهتة عند هذا الحد ، كلا ، بل إن مهتة أبعد غاية من ذلك : مهمته تتحدد في العلاقات المنظمة بين مجموع الكلمات التي تؤلف البيت من القصيدة ، أو الفقرة من القطعة الأدبية ؛ لأن ترتيب الكلمات على نسق معين يحقق

(١) النقد والنقاد المعاصرون - د / منثور ص ١٣ ، ١٤ ط نهضة مصر .

نعماً لا يخطئه السمع ، ولا يغفل عنه الوجدان . لذلك كان عبد القاهر الجرجاني على إدراك عميق حين لاحظ الحسن الذي يكون مصدره هذه العلاقات بين الألفاظ ، وهو ما يسمى بالنظم ، فموضع الحسن أن تتبع الألفاظ ترتيب المعاني ، والمعاني تتبع في ترتيبها منطلق العقل ، فما يرى العقل وضعه أولاً يعبر عنه باللفظ أولاً ، وما يرى وضعه ثانياً يوضع ثانياً ، فإذا خطر المعنى أولاً في النفس ، كان اللفظ الذي يدل عليه أولاً في النطق وهكذا . ومن ثم كان موطن الجمال الفني في ترتيب الكلمات والعلاقات بينها . أجل هو جمال لا نستطيع أن نمسك بألفاظه كما في البديع ، ولكنه جمال خفي يتسلل من العقل فيثري الوجدان .

كما لاحظ عبد القاهر الحسن في البديع ، فقال في أسرار البلاغة : « إذا توافرت هذه المحسنات البديعية مع حسن النظم - الذي ذكرناه آنفاً - يكون الكلام قد قرى الحسن من الجهتين ، ووجب له المزية بكلا الأمرين » غاية ما في الأمر أن الإيقاع والأنغام الصادرة عن النظم خفية داخلية ، وفي البديع جليلة خارجية ، فإذا اجتمع الحسن من كليهما ، استقر في الوجدان وظهر للعيان دفعة واحدة ، وهذا تمام الحسن وكماله .

ولو كان الشكل قليل الجدوى سواء كان مبعثه ترتيب الكلمات أو المحسنات ، لما خسر الشعر شيئاً بترجمته إلى لغة أخرى ، أو بتحويله إلى نثر انسلخت عنه خصائص الشعر ، لأن الذي يميز الفن عن غيره هو الشكل ، فلو انهار الشكل ، لم يعد الفن فناً ، وإن احتفظ بالموضوع الذي يعبر عنه بحذافيره .

وإذا كان وجه الجمال في عالم المعاني ينكشف في ترتيب العلاقات بين كلماته على نحو خاص ، والغاية من البديع إضفاء الجمال على الكلام ، فهنا يتضافران معاً على إبراز الإيقاع الداخلي والخارجي للنظم ، إذا كان الأمر كذلك فإن الدهشة لا تعترينا إذا رأينا السيوطي (ت ٩١١ هـ) بعد أن ينتهي من الحديث عن موضوعات علم المعاني ، يذكر « ان كثيراً منها أوردها جمع من العلماء في علم البديع ، منهم الطيبي في التبيان ، وأصحاب البديعيات ، مثل الإيجاز بأنواعه ، والإطناب بأنواعه ، والالفاظ والتغليب وغيرها » (١) .

(١) عقود الجمان . السيوطي ٢٥١/١ ط مصطفى الطيبي .

أما التصوير الذي هو من خصائص علم البيان ويميز الأدب عن غيره ، تعطيه التشبيهات والاستعارات والمجازات من خلق جمالي ، فإن علم البديع أقدر على خلق هذا الجمال ؛ لما فيه من تلاؤم في الألوان كما في التدييع ، أو تماثل في الألفاظ كما في الجناس ، أو تضاد في المعاني كما في الطباق والمقابلة ، أو تناسب في العبارات كما في مراعاة النظير ، وبسبب أن ترى هذا التوازن والتوافق في بقية المحسنات البديعية ، « والشعر إنما يختلف عن القول الحقيقي من حيث توضع فيه الكلمات متوافقة في الموازنة والمقدار كما يقول ابن رشد في تلخيص كتاب الشعر لأرسطو ، وما دام الشعر مبنياً على هذه الصور والأشكال ، فلا يكون النظر فيه إلا من جهة البيان والبديع » (١) .

والمحسنات البديعية لا تكون في يد الأديب الماهر مجرد ألفاظ عقيمة خاوية من كل معنى ، وإنما تتحول على يديه إلى شيء ذي قيمة عظيمة إذا أحسن استخدامها ، وأتى بها لتؤدي دوراً في إفادة المعنى ، فيزداد الكلام بها شرفاً وفضيلة ، وقد سبق أن أشرنا إلى المقارنة التي ذكرها عبد القاهر بين الجناس الحسن والرديء ، ومتى يكون حسناً جميلاً ، ومتى يكون رديئاً قبيحاً .

ولعل النقاد في عصرنا الحديث قد زهدوا في البديع وهاجموا أصحابه ؛ لما انتهى إليه حال الشعر العربي قبل حركة البعث الحديثة على يد البارودي وشوقي وحافظ ممن أنقلوا الشعر العربي من تلك الهوة السحيقة التي تردى فيها منذ عصر العباسيين إلى حركة البعث الحديثة « فقد كانت هذه الفترة فترة انحطاط كامل تضخم فيها البديع تضخماً شديداً ، وملأ به الكتاب كلامهم ، وحشى به الشعراء أشعارهم مشربين بأعناقهم إلى أصحاب البديعيات من أمثال صفى الدين الحلبي الذي ذاعت شهرته في كل الفترة المتأخرة ، وفي ديوانه قصيدة تضم إحدى وخمسين ومائة صورة من صور البديع ، بل عنده رسائل كل أحرفها مهمله بلا نقط » (٢) أو متجهين بأبصارهم نحو أصحاب المقامات ، كمقامات بديع الزمان الهملاني والحريري التي انصرفت إلى الأسلوب المصطنع الزاخر بالحلية اللفظية التي لا تعود على المعنى بفائدة تذكر .

(١) في أصول الأدب - الزيات ص ٥٧ - ٥٩ ط ٣ .

(٢) دراسات في تاريخ الأدب العربي - كراتشكوفسكي - ص ٢٣ ط ١٩٦٥ .

العقاد يصف الحالة التي انتهى إليها الشعر العربي من طغيان البديع بأنه « شعر لا يقصد به غير الوزن والاستكثار من محسنات الصنعة ، فملاؤه الشعراء بالتورية والكناية والجناس والترصيع ... وظهر في الشعر التطريز والتصحيف والتشطير والتخميس ، وراح الشعراء يتبارون في اللعب بالألفاظ وجمعها ، ويخلطون كلامهم بكلام غيرهم ، وهم لا يحسبون أنهم لا يخلون بروح الشعر ، ما داموا يلتزمون حروف الروي في كل بيت ، وعروض البحر في كل قصيدة »^(١) .

فخروج البديع عن دائرته المرسومة ، وغلبة الكلفة عليه ، أحاله إلى صنعة عقيمة لا يؤدي دوراً في المجال الأدبي بصفة عامة ، والفن الشعري بصفة خاصة ، بل أصاب الأدب العربي بتدهور لعدة قرون انضب فيها ماء الشعر وأخرجه عن مداره .

كان طبيعياً أن يكون استخدام البديع بهذه الصورة ذا أثر قوي في تدمير اللذوق الأدبي ، كما كان طبيعياً أن يهاجمه النقاد ويهونوا من شأنه ؛ لأنه أصبح سبباً من أسباب القبح ، وليس عاملاً من عوامل الجمال الذي لاحظته النقاد الأقدمون .

ويجمل بنا أن نقف وقفة يسيرة عند بعض الدارسين المحدثين الذين نظروا إلى البديع نظرة موضوعية ، بعيدة عن عوامل الانحطاط الخارجية التي أملت به في قترات القحط الفكري والجفاف الفني ، فهم يرون فيه قيمة كبرى ، وأنه يقف ندا لعلمي المعاني والبيان ؛ لأثره البارز في العبارة :

« إن المحسنات البديعية ليست أموراً تابعة للمعاني والبيان ، ولا ثانوية يسيرة الأهمية ؛ بل هي وجوه توجد وحدها ، وإنا برفض هذا الاعتبار في التقدير ، نستطيع النظر في هذه المحسنات نظراً متفتناً منعماً ، لندرك أثرها في العبارة »^(٢) .

(١) الشعر المصري بعد، شوقي ص ٣ نقلاً عن مقال للعقاد في الفصول ط نهضة مصر .

(٢) فن القول أمين الخولي ص ١٨٤ ط دار الفكر العربي .

علماء البلاغة يعرفون البيان بأنه :

علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ،
وحصرها أبحاثه في التشبيه والمجاز والكناية .

وحصرها البديع في وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال ،
ووضوح الدلالة .

ويقوم من تعريف البديع ، أنه لا يأتي إلا بعد توافر المعاني والبيان ، وواضح
مدى التعسف في مفهوم البديع بهذه الصورة « فالحق الذي لا ينازع فيه منصف
أن البديع لا يشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة ، وأن كل واحد من التطبيق
على مقتضى الحال ، ومن الإيراد بطرق مختلفة ، ومن وجوه التحسين ، قد يوجد
دون الآخرين ، وأول برهان على ذلك أنك لا تجدهم في شيء من أمثلة البيان
يتعرضون إلى اشتغال شيء منها على التطبيق والإيراد ؛ بل تجد كثيراً منها خالياً
عن التشبيه والاستعارة والكناية التي هي علم البيان ، هنا هو الإنصاف ، وإن كان
مخالفاً لكلام الأكثرين » (١) .

ووجوه البديع على ضربين :

معنوي : يرجع إلى تحسين المعنى أولاً وبالذات ، وإن كان بعضها قد يفيد
تحسين اللفظ أيضاً (٢) ، كما في المشاكلة ، فالغرض فيها معنوي ، ويصحبه أيضاً
الحسن اللفظي ، لما في المشاكلة من إبهام المجانسة .

ولفظي : يرجع إلى تحسين اللفظ أولاً وبالذات ، وإن كانت تفيد تحسين
المعنى أيضاً ؛ لأنه إذا عبر بلفظ حسن ، استحسنت معناه تبعاً ، وكذلك إذا كان
المعنى حسناً تبعه حسن اللفظ الدال عليه .

الافتعال هنا ظاهر في تقسيم المحسنات إلى معنوية ولفظية ؛ لأن تداخل الحسن

(١) عروض الأفراس ضمن شروح التلخيص - السبكي ٢٨٤/٤ عيسى الحلبي .

(٢) المطول - التفتازاني ٤١٧ ط ١٣٣٠ والأطول - العصام ١٨١/٢ ط إيران وعقود الجمان ٧٨/٢ .

فيهما واضح ، فما دام المعنى حسناً ، تبعه لفظ حسن يؤديه ، وما دام اللفظ حسناً ، فلا يعبر به إلا عن معنى حسن ، فالحسن المعنوي واللفظي مشترك بين المحسنات سواء أكانت معنوية أم لفظية ، ولا عبرة بأن يكون في أحدهما قدر أكبر من الآخر .

ومهما يكن فليس غرضنا الآن إبراز هذا التكلف في تقسيم المحسنات إلى معنوية ولفظية ، ولكن الغرض إبراز الاضطراب الذي وقع فيه العلماء حين جعلوا تقسيم الكلام الى بيان وبديع ، ووضعوا الحدود للفرق بينهما دون أن يلتزموا بها عند التطبيق ، فنلاحظ مثلاً أن :

١ - الاستعارة قد وضعها العلماء المتأخرون في علم البيان ، * وهي عندهم نوع من المجاز ، بل هي أفضل أنواع المجاز وأخص منه ، إذ قصد المبالغة شرط فيها ، وموقعها في الأذواق السليمة أبلغ ، وليس في أنواع البديع أعجب منها إذا وقعت موقعها^(١) .

هذه الاستعارة التي اشترط فيها العلماء قصد المبالغة ، والتي عدّها ابن حجة الحموي أعجب أنواع البديع إذا وقعت موقعها ، ضسها العلماء الى علم البيان ، في حين جعلوا المبالغة نفسها ، وهي : إفراط وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة ، وما يتفرع عنها من إغراق وغلو مقبول ، من أنواع البديع . الاستعارة والمبالغة يشتركان في هدف واحد هو المبالغة ، وفرقوا بينهما فجعلوا أحدهما بياناً والآخر بديعاً ، دون أن يكون ثمة مبرر لهذه التفرقة .

٢ - علماء البلاغة يضربون بعض الأمثلة ويقولون : إنها مجاز مرسل ، ثم يضربون الأمثلة نفسها ويقولون : إنها مشاكلة .

ففي قوله تعالى حكاية عن المنافقين : (قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم) البقرة ١٤ ، ١٥ والمعنى : أنه يجازيهم على استهزائهم ، وسمى الله تعالى ذلك استهزاء مجازاً ، من تسمية الجزاء على الذنب باسم الذنب^(٢) والعرب

(١) خزانه الأدب ، الحموي - ص ٤٨ ط ١ .

(٢) امالي المرتضى ١/٥٦ ، ١٤٤/٢ - ١٤٧ الشريف المرتضى ط عيسى الحلبي .

تسمى الجزاء على الفعل باسمه ، قال تعالى : (وجزاء سيئة سيئةً ، مثلها) الشورى ٤٠ .
(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) البقرة ١٩٤
وهو ما تعارف عليه العلماء بأنه مجاز مرسل علاقته السببية .

وفي باب المشاكلة^(١) ، وهي : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ،
كقوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئةً مثلها) فالجزاء عن السيئة في الحقيقة غير سيئة ،
والأصل : وجزاء سيئة عقوبةً مثلها . ومنه قوله تعالى : (فمن اعتدى عليكم
فاعتدوا عليه) أي : فعاقبوه .

فإذا كانت الأمثلة نفسها يعبر عنها مرة بأنها مجاز مرسل ، وأخرى بأنها
مشاكلة ، والمجاز يدخل في علم البيان الذي يعتد به عند علماء البلاغة ، بينما
المشاكلة من البديع الذي يعتبر فضلة يمكن الاستغناء عنه ، والعلة لم تختلف ،
فكيف يقال عن الشيء الواحد بأنه ذو قيمة ، وغير ذي قيمة في وقت واحد ؟ ! .

٣ - التدييع : وهو عبارة عن ذكر ألوان يقصد بها التورية أو الكتابة^(٢)
كقول أبي تمام :

تردّي ثياب الموت حُمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر

فحمر الأكفان : كناية عن استشهاده بالقتل ، وخضرة السندس : كناية
عن دخوله الجنة . هذا البيت وغيره مما ذكر فيه ألوان يقصد بها الكناية ، كناية
وتدييع في آن واحد ، فلم عد من البديع رغم إنه كناية ؟ وإذا كان يحمل معنى
الكناية فلماذا لم يوضع في علم البيان ؟

إن الحدود الفاصلة بين النوعين غير واضحة تماماً ، والاضطراب في المفاهيم
ما زال قائماً .

٤ - تجاهل العارف : وسماه السكاكي بسوق المعلوم مساق غيره لنكتة المبالغة
في التشبيه ، ومن الناس من جعل تجاهل العارف مطلقاً ، سواء كان على طريق

(١) خزائن الأدب - ابن حجة ٣٥٦ . الايضاح - القزويني ٤٩٤ ط بيروت .

(٢) الايضاح ٤٨٣ .

التشبيه أو على غيره^(١) . وفائدته المبالغة في المعنى ، نحو قولك : أوجهك هذا أم بدر ؟ فإن المتكلم يعلم أن الوجه غير البدر ، إلا أنه أراد المبالغة فاستفهم ، ففهم من ذلك شدة الشبه بين الوجه والبدر ، فإن كان السؤال عن الشيء الذي يعرفه المتكلم خالياً من الشبه ، لم يكن من هذا الباب ، بل يكون من باب آخر كقوله تعالى : (وما تلك بيمينك يا موسى) طه ١٧ فإن السؤال ما وقع لأجل المبالغة في التشبيه المشار إليه في تجاهل العارف ؟ بل هو لفائدة أخرى : إما لإيناس موسى ، لأن المقام مقام رهبة ، وإما لأظهار المعجز الذي لم يكن موسى يعلمه .

انظر إلى تعريف تجاهل العارف ، وتضمنه لنكتة المبالغة في التشبيه حتى يدخل علم البديع ، وإذا كان خالياً من التشبيه لم يكن من هذا الباب ، وإنما يكون من باب آخر ، ليكن من المعاني أو من البيان ، أي انه إذا خلا من التشبيه أصبح ذا منزلة عند علماء البلاغة ، وإذا تضمن التشبيه دخل في علم البديع ، وصار ذبلاً في البلاغة لا يعتد به ، وليس وراء ذلك من عجب .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، إذا كان تجاهل العارف أساسه المبالغة في التشبيه ، أفلا يكون ادعى أن يدخل في علم البيان ، وليس في البديع ؟ .

هذه بعض ألوان من البديع - لا نتوخى فيها الحصر - نرى من الأخرى أن توضع في علم البيان ، اللهم إلا إذا كان البديع والبيان بمنزلة واحدة ، لا يفضل أحدهما الآخر ، وليسا شئين أحدهما في المقدمة والآخر في المؤخرة . وكما قلت ليس الغرض حصر جميع الوجوه التي أدخلها علماء البلاغة في البديع ثم يقضون عليها بعد ذلك بأنها ليست من صميم البلاغة ، وإنما هي من توابعها ، فيقللون من شأنها ، ويقضون من قيمتها ، وإنما الغرض أن نبين أن هذه الأنواع وما يماثلها جديرة أن تضم إلى البيان ، ما دام الفضل يعزي إلى البيان دون البديع .

وقد كان الزمخشري على صواب حين كان « يسمى البيان والبديع بعلم البيان

(١) خزنة الأدب ١٢٢ .

في كثير من كلامه في الكشاف»^(١) مهتدياً في ذلك بعبد القاهر الجرجاني الذي جعل البيان والبديع كلمتين مترادفتين^(٢) .

ونحب أن ننبه إلى أن بعض الأنواع التي وضعها المتأخرون في علم البديع لا تحمل سمة الحسن ، ولا تضيفي على الكلام قيمة أو جمالاً ، وكثير منها لا يستحق أن يقتحم قلعة البديع أو يترع في ساحته ، وإنما أضيفت إلى البديع ؛ تباهاً بابتكار أنواع جديدة ، وضعوا لها أسماء جديدة لم يسبقوا إليها . وابن حجة الحموي يصف الكثير من هذه الأنواع بأنها سافلة لا تستحق أن تنتظم في أسلاك البديع^(٣) .

* * *

وخلاصة البحث :

١ - ان عبقرية اللغة العربية تتمثل في جمالها وكمالها ، وجمالها ينبعث من جرسها وإيقاعها ، كما ينبعث من العلاقات بين ألفاظها ، واهتمام الشعراء والكتاب بتهديب أشعارهم وأدبهم كان وسيلة للوصول إلى هذا الجمال والمحافظة عليه .

٢ - البديع هو الغاية من العلوم الأدبية كلها ، فهو في النروة منها ، وليس تابعاً لها .

٣ - كثرة البديع أو قلته ليست سبباً في الحسن أو القبح ، وإنما التكلف في استخدامه هو الذي يهوى بمنزلة البديع العالية .

٤ - كثرة البديع كان هو المجال الأكبر لمدرسة التجديد ، فنشأت عنه الخصومات ، وكان النقاد ما بين مفتون به وساخط عليه .

(١) شروح التلخيص ١٥٣/١ .

(٢) انظر مقدمة بديع القرآن - حفني شرف ص ٢٦ - ٢٨ ط نهضة مصر .

(٣) انظر نثره الأدب ٣٧١ ، ٣٦٦ ، ٣٧٥ ، ٤١٧ .

- ٥ - البديع ليس مجرد حلية ، وإنما هو مرتبط بالمعنى ، وفصل البيان عن البديع نوع من الافتعال .
- ٦ -- إبراز قيمة البديع باعتباره صنواً لعلمي المعاني والبيان .
- ٧ - البديع وجه من وجوه الإعجاز ، أو على أقل تقدير هو باب من أبواب البراعة ، وجنس من أجناس البلاغة ..

البَابُ الثَّانِي

الْبَدِيعُ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ

البدیع عند البلاغیین

تطلق كلمة البديع على الغريب العجيب ، أو الجديد الذي ينشأ على غير مثال سابق ، وهي في أسماء الله تعالى بمعنى الخالق ابتداء لا عن مثال سابق ، يقول تعالى : (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) البقرة ۱۱۷ .

وفي الحديث الشريف بمعنى الحلاوة والطيب ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في وصف تهامة : « إن تهامة كبديع العسل : حلوا أوله ، حلوا آخره » .

وقد استعمل الشعراء والكتاب البديع وألوانه ، لما فيه من طرافة وجمال ، دون أن يلتزموا بشيء من القيود التي وضعها العلماء المتأخرون لمفهوم البديع كعلم له مصطلحاته وألوانه الخاصة التي تقتصر عليه ، وحدوده التي يعرف بها دون أن يسمحوا لغيرها أن تدخل منطقتة . فكل ما هو طريف وجميل ينطوي تحت كلمة البديع سواء كان جناساً أو طباقاً ، أو استعارة أو تشبيهاً ، أو إيجازاً أو إطناباً وله أثر في تكوين العبارة وتصويرها وتزيينها .

وتنبه الشعراء بصفة خاصة إلى الأثر الذي يتركه هذا البديع فأولعوا به واستخدموه في أشعارهم باعتباره وسيلة للوصول إلى هذه الغاية : استعمله بشار بن برد ، ومسلم بن الوليد ، وابن الرومي ، والبحري ، حتى أصبح البديع غاية في ذاته على يد أبي تمام .

ويقال إن مسلم بن الوليد هو أول من أطلق كلمة البديع على هذا الفن وليس ابن المعتز ، فقد جاء مسلم بهذا الذي سماه الناس البديع^(١) وشاعت هذه الكلمة

(١) الأغاني - الأصفهاني ٣١/١٩ ط دار التأليف .

حتى صارت في العصر العباسي تعني كل صورة غريبة أو طريفة أو جديدة حتى طغت على الأساليب الشعرية أو الثرية .

جاء ابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) وأراد أن يجمع شتات هذه الألوان البديعية المضرة في سلك واحد ، فوضع اللبنة الأولى في بناء صرح البديع : جمع منه سبعة عشر لوناً ، وتباهى بعمله فقال : وما جمع فنون البديع أحد قبلي ، ولا سبقني إليه مؤلف .

وعاصره قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) فجمع من ألوان البديع عشرين نوعاً ، منها سبعة أنواع ذكرها ابن المعتز من قبل ، فكان ما زاده قدامة ثلاثة عشر نوعاً فتكامل لهما ثلاثون .

ثم تبعهما العلماء في رفع قواعد هذا البناء ، فجمع أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) سبعة وثلاثين نوعاً مضيفاً إلى قدامة سبعة أنواع أخرى .

وأتى ابن رشيق (ت ٤٦٣ هـ) فأضاف إلى البديع ما أضاف ، حتى بلغ به خمسة وستين باباً كما يقول السبكي (١) .

إلى أن جاء ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ) فنظر في هذا الحشد من ألوان البديع فرأى بعضها ينشأ من وضع الألفاظ في مواضعها ، وبعضها يأتي من مناسبة الألفاظ للمعاني ، فجعلها نوعين :

قسم يتعلق بالألفاظ وآخر يتعلق بالمعاني (٢) . فكانت هذه النظرة المتأملة الفاحصة مدخلاً للعلماء المتأخرين أن يقسوا البديع إلى محسنات معنوية ومحسنات لفظية .

ثم رأينا ابن أبي الأصبغ المصري (ت ٦٥٤ هـ) يتناول البديع فيديع ، ويذكر أنه وقف على أربعين كتاباً في هذا الفن ، وأخذ منها سبعين نوعاً ، واستخرج عشرين (٣) .

(١) عروس الأفراح ٤/٤٦٧ .

(٢) سر الفصاحة ١١٠ - ١١٨ وما بعدها .

(٣) انظر مقدمة تحرير التحرير ص ٨٧ .

وصنف ابن مقفد (ت ٥٨٤ هـ) كتاب التصريح في البديع جمع فيه خمسة وتسعين نوعاً^(٤) .

كل ذلك وألوان البديع ينطوي تحتها ما يدخل في علم المعاني ، وما يدخل في علم البيان ، وما يدخل في علم البديع . إلى أن جاء السكاكي (ت ٦٢٦ هـ) وحاول أن يرسم الحدود بين هذه العلوم الثلاثة ويضع كلاً منها في موضعه الذي يراه . فلا تختلط الحدود ، ولا تتداخل الأمور . فوضع أنواع البديع تحت اسم المحسنات وقسمها مهتدياً بالخفاجي إلى محسنات معنوية ، ومحسنات لفظية ، وفصلها عن علم المعاني وعلم البيان .

بقيت خطوة أخيرة قام بها الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) وهي أنه ضم هذه المحسنات التي ذكرها السكاكي تحت اسم البديع . وانتهت إلى ذلك علوم البلاغة بأقسامها الثلاثة : معان ، وبيان ، وبديع .

ذكر الخطيب القزويني من البديع المعنوي ثلاثين نوعاً . ومن اللفظي سبعة أنواع ، وذكر أثناءها أموراً ملحقة بها تصلح أن تعد أنواعاً آخر .

وما جاء به الخطيب هو المعتمد حتى الآن في دراستنا للبديع ، دون نظر إلى هذا السيل الجحاف الذي أتى به من قبله من ألوان البديع ، ومن جاء بعده من أصحاب البديعيات ، حتى وصلت على أيدي أصحابها إلى أكثر من مائتي نوع ! .

والبديع عند البلاغيين هو :

علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقة الكلام لمقتضي الحال ورعاية وضوح الدلالة .

أي : أن هذه الوجوه تعتبر محسنة للكلام بعد رعاية هذين الأمرين ، وإلا لكان البديع كتعليق الدر على أعناق الخنازير .

وقد يخلو الكلام الفصيح البليغ عن صنعة البديع ، كذلك يخلو الكلام

(٤) عقود الجمان ٧٨/٢ .

الذي فيه صنعة البديع عن الفصاحة والبلاغة ، فيظن أن الصانع يستحق المدح باعتبار صنعة البديع ، والذم باعتبار قوت صناعة الفصاحة والبلاغة ، كلا ليس الأمر كذلك ، فصانع البديع لا يستحق المدح على الإطلاق ، وإنما يستحق المدح بعد رعاية شرائط البلاغة من رعاية المطابقة ووضوح الدلالة ، ولذلك دخلت هذه الشرائط في تعريف البديع . فالبديع لا يكون بديعاً إلا بمراعاة ما يدخل في نطاق المعاني والبيان ، وحيث بعد الكلام الذي يشمل صنعة البديع هو أقصى مراتب الكلام في الكمال . فإذا عرفنا الكلام الكامل غاية الكمال قلنا :

إنه كلام بليغ موشى بالمحسنات البديعية .
ومحسنات الكلام : إما معنوية ، وإما لفظية .

فالمعنوي : هو ما يزيد المعنى حسناً ، إما بزيادة تنبيه على شيء ، أو بزيادة التناسب بين أجزاء الكلام ، فبعض هذه المحسنات المعنوية - إذن - لا تخلو عن تحسين اللفظ .

واللفظي : هو ما يزيد الألفاظ حسناً ، وإن كان لا يخلو عن تحسين المعنى . وقد جرت عادة العلماء أن يبدأوا بالمعنوي ، لأن المقصود الأصلي هو المعاني ، والألفاظ توابع وقوالب لها .

ونبدأ بالحديث عن المحسنات المعنوية جرياً على المؤلف .

الفصل الأول

المحسنات المعنوية

فمن المحسنات المعنوية :

الطباق :

ويسمى المطابقة والتطبيق والتضاد والتكافؤ .

وهو : أن يجمع بين متضادين ، أي : معنيين متقابلين في الجملة . وهو نوعان :
حقيقي ومجازي ، ويخص بعضهم الثاني باسم : التكافؤ : فالطباق الحقيقي ،
ما كان بألفاظ الحقيقة ، كقوله تعالى :

(وما يَسْتَوِي الأعمى والبصير ، ولا الظلماتُ ولا النورُ ، ولا الظلُّ ولا
الحرورُ وما يستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ) فاطر ١٩ - ٢٢ .

وقوله تعالى : (وأنه هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ، وأنه هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ، وأنه خَلَقَ
الزَّوْجَيْنِ : الذَّكَرَ وَالْأُنثَى) النجم ٤٣ - ٤٥ .

وقوله تعالى : (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ) الكهف ١٨ .

وقوله تعالى : (سِوَاهُ مَنْكُمْ مَنْ أَسْرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ
بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) الرعد ١٠ .

ومنه قوله تعالى : (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ) الحاقة ٢٢ ، ٢٣ طابق
بين العلو والدنو .

وقوله تعالى : (فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ، وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ) الغاشية ١٣ ، ١٤ .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم :

(إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع) فطابق بين الكثرة والقلة .

وكقول الشاعر :

ويومٌ علينا ويومٌ لنا ويومٌ نساءً ويومٌ نسرٌ

وقول ابن الدمينه :

لأن ساء نسي أن نلتني بمساءة لقد سرتني أني خطرت بيالك

والطابق المجازي : ما كان بالفاظ المجاز ، كقوله تعالى : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) البقرة ١٦ .

فإن اشتراء الضلالة وبيع الهدى مجاز ، لأن اشتراء الضلالة وبيع الهدى لا يكون على سبيل الحقيقة .

وكقول علي رضي الله عنه :

« احذروا صولة الكريم إذا جاع ، واللثيم إذا شبع » . ليس يعني بالجوع والشبع ما يعرفه الناس من امتلاء المعدة وخطوها ، وإنما المراد : احذروا صولة الكريم إذا ضميم وامتنع ، واحذروا صولة اللثيم إذا أكرم وعظم .

وكقول التهامي :

لقد أحيأ الكارم بعد موت وشاد بناءها بعد انهدام

فالأحياء والموت ، والشيد والانهدام ، ليست معاني حقيقية ؛ بل هي مجازية ، إذ المراد : أنه أعطى بعد أن امتنع الناس كلهم عن العطاء .

• • •

والطابق قد يكون طباق إيجاب كالأمثلة السابقة ، وقد يكون طباق سلب ، كقوله تعالى :

(وإن يروا سبيل الرشدي لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً)

الأعراف ١٤٦ فطابق بين لا يتخلوه وبين يتخلوه .

ومثله قوله تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) البقرة ٦
طابق بين الإنذار وعدم الإنذار ، وأحدهما موجب والآخر منفي .

وقوله عز وجل :

(تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) المائدة ١١٦ .

أثبت العلم أولاً ونفاه ثانياً .

وقوله عليه السلام :

«كونوا للعلم دُعاة ، ولا تكونوا له رُواة» .

* * *

وهذه كلها أمثلة للطباق اللفظي .

وهناك نوع آخر هو الطباق المعنوي . وهو ما كان في المعنى وليس في اللفظ
كقوله تعالى :

(إِنَّ أَنْتُمْ أَلَّا تَكْذِبُونَ ، قَالَوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ) يس ١٥ ،
١٦ معناه : ربنا يعلم إننا لصادقون .

وقوله تعالى :

(فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ
صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ) الأنعام ١٢٥ .

فقوله : يهديه ويضله من الطباق اللفظي .

وقوله : يشرح صدره مع قوله يجعل صدره ضيقاً حرجاً من الطباق المعنوي ؛
لأن معنى « يشرح صدره » يوسعه بالإيمان ، ويفسحه بالنور وهو يطابق قوله :
« ضيقاً حرجاً » .

وقوله تعالى :

(الذي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً) البقرة ٢٢ البناء ارتفاع ،
والفراش على خلاف البناء .

وكقول المقنّع الكندي من أبيات الحمامة :

لهم جُلُّ مالي إن تتابع لي غنيٌّ وإن قلَّ مالي لا أكلفهم رفداً
فهذا من الطباق المعنوي ؛ لأن قوله : إن تتابع لي غني ، معناه : إن كثر
مالي ، والكثرة ضد القلة .

* * *

وقد يكون الطباق خفياً ، كقوله تعالى :

(ولَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) البقرة ١٧٩ فالقصاص معناه : القتل ، وهو
سبب في الإبقاء على الحياة . وقوله تعالى :

(ويا قَوْمِ مالي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ) غافر ٤١ فقوله :
أدعوكم إلى النجاة معناه : أدعوكم إلى الجنة وهو ضد النار .

تعالى : (بِمَا خَطَبْتَنَّهُمْ أَغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَاراً) نوح ٢٥ فالإغراق من صفات
الماء ، فكأنه جمع بين الماء والنار ، وهما متضادان وهي أخفى مطابقة في القرآن .
هكذا قال ابن مقبل^(١) .

وقوله تعالى : (ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِداً) النحل ٥٨ .

لأن ظل لا تستعمل إلا نهارة ، فإذا لمع مع ذكر السواد ، كأنه طباق بذكر
البياض مع السواد .

وكقول الشاعر :

وَجْهُهُ غَايَةُ الْجَمَالِ وَلَكِنْ فَعَلَهُ غَايَةُ كُلِّ قَيْحٍ

(١) البديع في نقد الشعر ص ٣٦ ط وزارة الثقافة .

فالجمال ضده الدمامة ، والدمامة تستلزم القبح ، فكان الطباق خفياً .

واعلم أن مطابقة الضد بالضد ليس تحته كبير أمر ، وإنما يحسن الطباق إذا رشح بنوع آخر من البديع يكسوه حلاوة لا توجد عند فقده ، وما وقع من الطباق في القرآن الكريم رشح بنوع آخر من البديع ، كقوله تعالى :

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا) الرعد ١٢ .

إذ ليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق ، والطمع في الأمطار ، ولا ثالث لهذين القسمين ، فشفع الطباق بالتقسيم .

وقوله تعالى :

(وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) القصص ٧٣ فإن فيه مع المطابقة اللف والنشر .

وقوله تعالى :

(تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) آل عمران ٢٧ فيه مع المطابقة العكس والتبديل .

وهكذا إذا تبعت الطباق في القرآن وجدته مرشحاً بنوع آخر من البديع ، فتلاحظ في الطباق إيقاع التوافق بين ما هو في غاية التخالف .

• • •

المقابلة :

هي أن يأتي المتكلم بلفظين متوافقين فأكثر ، ثم بأضدادها أو غيرهما على الترتيب .

والفرق بين الطباق والمقابلة من وجهين :

أحدهما : أن الطباق لا يكون إلا بالأضداد ، والمقابلة تكون بالأضداد وبغيرها ، وإن كانت الأضداد أعلى رتبة وأعظم موقفاً .

والثاني : أن الطباق لا يكون إلا بين ضدين فقط ، والمقابلة لا تكون إلا بما زاد عن ذلك من أربعة إلى عشرة ، وكلما كثر عددها كانت أوقع .

مثال ذلك قوله تعالى :

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ)
البقرة ٢١٦ فأتى أولاً بلفظين متوافقين وهما تكرهوا وخير ، ثم أتى بضديهما وهما : تحبوا ، وشر .

وقوله تعالى : (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) الأعراف ١٥٧ .

وقوله تعالى : (فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لَكِيلاً تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا
بِمَا آتَاكُمْ) آل عمران ١٥٣ فقابل الفرح بالحزن ، والإتيان بالفوت .

وقوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ بِأُمْرٍ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) النحل ٩٠ فقابل بين الأمر وما يتبعه ، وبين النهي وما يتبعه ،
فقد أمر بثلاثة ونهى عن ثلاثة ، ففي الآية مقابلة أربعة أشياء بأربعة أشياء .

وكقول علي رضي الله عنه لعثمان :

« إن الحق ثقيل مريء ، والباطل خفيف وبيء^(١) ، وأنت رجل إن صدقتك
سخطت ، وإن كذبتك رضيت » ، فقابل الحق بالباطل ، والثقيل المريء بالخفيف
الوئيء ، والصدق بالكذب ، والسخط بالرضا ، فهذه خمس مقابلات .

ومثال مقابلة ستة ب ستة قول الشاعر :

على رأس عبدٍ تاجٍ عزَّ يزبنه وفي رجلٍ حسرٍ قيدٌ ذلٌّ يشينه

هذه أمثلة المقابلة بالأضداد ، وقد تكون المقابلة بغير الأضداد كقوله تعالى :
(إِنَّ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا) التوبة ٥٠ فصد الحسنه
السيئة ، والمصيبة تقارب السيئة ، فكل مصيبة سيئة دون العكس ، فالمناسبة ظاهرة

(١) الباطل وبيء : لا تحمد عاقبته .

بين الحسنة والمصيبة وإن لم يكن أحدهما ضد الآخر .

ومن ذلك قوله تعالى :

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا)
البقرة ٦٨ ، فذكر أولاً وعد الشيطان لهم بالفقر والفحشاء ، ثم قابل الفقر بالفضل ،
والأمر بالفحشاء بالمغفرة ، إذ الفحشاء توجب العقوبة ، والعقوبة لازمة لارتكاب
الفواحش ، والمغفرة تقابل العقوبة . فكانت الآية من أجل المقابلات .

وقوله تعالى :

(أَشَدَّاءُ عَلَى الْكٰفِرِ رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ) الفتح ٢٩ .

فالرحمة ليست ضد الشدة ، وإنما ضد الشدة اللين ، فلما كانت الرحمة
سبباً في اللين حسنت المطابقة بينهما ، وكانت المقابلة لائقة .

ومن أبرع المقابلات ذلك التقابل الذي يعرضه القرآن مصوراً فيه العذاب
الحسي والنعيم المادي :

(هلْ أَتٰكَ حَدِيثُ الْعٰشِيَةِ ، وَجُوهُ يَوْمئِذٍ خٰشِعَةٌ ، عٰمِلَةٌ نٰصِبَةٌ ، تَصَلُّوْا
نٰرًا حٰمِيَةً ، تُسْقٰى مِنْ عَيْنٍ ٰنِيَّةٍ ، لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ ٭ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ ، لَا يُسْمِنُ
وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ) العاشية ١ - ٧ .

وفي مقابل هذا العذاب الحسي تأتي صورة النعيم المادي بعدها مباشرة (وَجُوهُ
يَوْمئِذٍ نٰعِمَةٌ ، لَسَعِيهَا رٰضِيَةٌ ، فِي جَنَّةٍ عٰلِيَةٍ ، لَا تَسْمَعُ فِيهَا لٰغِيَةً ، فِيهَا عَيْنٌ
جَارِيَةٌ ، فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ، وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ، وَنَمٰرِقٌ مَصْفُوفَةٌ ، وَزَرَٰبِي
مَبْشُوقَةٌ) العاشية ظ - ١٦ .

فالمقابلة واضحة في كل جزئية من الجزئيات التي تصور حالة الكافرين
وعذابهم ، وحالة المؤمنين ونعيمهم .

وكذلك المقابلات التي توارد بعضها أثر بعض في سورة الليل :

(وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشٰى ، وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ، وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثٰى ، إِنَّ سَعِيَكُمْ

لشئى ، فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسيسره اليسرى ، وأما من
بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا
تردى ، إن علينا للهنى ، وإن لنا للآخرة والأولى ، فأنذرتمكم ناراً تظلى ، لا
يصلها إلا الأشقى ، الذي كذب وتولى ، وسيجنبها الأتقى ، الذي يؤتي ماله
يتركى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف
يرضى) الليل ١ - ٢١ .

« فالنهار إذا تجلى » يقابل تماماً « الليل إذا يغشى » ، والأثنى تقابل الذكر
في النوع والخلقه ، ومن « بخل واستغنى » يقابل من « أعطى واتقى » ، وكذب
بالحسنى « يقابل من « صدق بالحسنى » و« سيسره للعسرى » في مقابلة « فسيسره
لليسرى » ، « وسيجنبها الأتقى » في مقابلة « لا يصلها إلا الأشقى » .

فالمساعي بين الناس مختلفة متباعدة ؛ لأن منهم المؤمن والكافر ، والمطيع
والعاصي ، ومن يسعى لانتقاء النار ومن يلقي بنفسه فيها ، نتيجة لانتقاء الله أو الاستغناء
عنه ، فكانت هذه الصور المتقابلة في تواتر عجيب لتحديد لنا هذين الصنفين من
الناس وجزء كل فريق منهم .

واعلم أن في تقابل المعاني باباً عظيماً يحتاج إلى فضل تأمل ، وهو غالباً يتصل
بالفواصل ، كما نلاحظ في الآيات السابقة .

وقد يجيء نظم الكلام على غير صورة المقابلة في الظاهر ، وإذا توهم كان
من أكمل المقابلات ، مثال ذلك قوله تعالى :

(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى) طه

. ١١٨ ، ١١٩ .

فالظاهر أنه يقابل الجوع بالظمأ والعرى بالضحى .

ولكنه قابل الجوع بالعرى ، والظمأ بالضحى .

والمدقق يرى هنا الكلام في أعلى مراتب الفصاحة ؛ لأن الجوع ألم الباطن
والضحى موجب لحرارة الظاهر فقابل احتراقاً باحتراق ، كما قابل الخلو بالخلو
في العرى والظمأ ، فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهراً وباطناً .

ومثل ذلك قوله تعالى :

(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ) هود ٢٤ ، فإنه يتبادر

إلى الذهن هذا السؤال :

لِمَ لَمْ يَقُلْ : مثل الفريقين كالأعمى والبصير ، « والأصم والسميع » لتكون
المقابلة في لفظ « الأعمى » وضده « البصير » وفي لفظ « الأصم » وضده
« السميع » ؟

والجواب : أنه لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد السمع ، وبضد ذلك ،
لما ذكر انفتاح البصر أعقبه بانفتاح السمع ، فما تضمنته الآية الكريمة هو الأنسب
في المقابلة والأتَم في الإعجاز .

• • •

التدريج :

وهو أن يذكر المتكلم ألواناً بقصد الكناية بها ، أو التورية . كقوله تعالى :

(وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ) فاطر ٢٧

فالألوان هنا كناية عن المشتبه والواضح من الطرق^(١) .

فالجادة البيضاء هي الطريق المأهول ، وهي أوضح الطرق وأبينها ، ودونها
الحمراء ، ودون الحمراء السوداء ، كأنها في الخفاء والالتباس ضد البيضاء في
الظهور والوضوح . فالطرف الأعلى في الظهور البياض ، والطرف الأدنى في الخفاء
السواد ، والأحمر بينهما على وضع الألوان في التركيب ، وأشار بقوله (مختلف
ألوانها) إلى ما في هذه الألوان من الوسائط بين مركباتها وهي لا تدخل تحت
الحصر ، فعبر عنها بعبارة غير حاصرة لها .

ومنه قول الرسول عليه السلام :

(ما من عبد يموتُ فتركُ صفراءً أو بيضاءً إلا جعل اللهُ بكلِّ قيراطٍ منها

(١) بدیع القرآن - ابن أبي الأصح ص ٢٤٢ ، الألفان - السيوطي ٨٩/٢ .

صفحة من نار) ذكر الصفراء وكني بهما عن الذهب والفضة . ومن التدييح قول ابن حيوس :

بياض عزم واحمرار صوارم وسواد تقع واخضرار رحاب
وقول الصقدي :

ما أبصرت عيناي أحسن منظراً فيما ترى من سائر الأشياء
كالشامة الخضراء فوق الوجنة الحمراء تحت المقلة السوداء .

يقول العلوي^(١) وللتدييح موقع عظيم في البلاغة ، وهو يكسب الكلام طلاوة ، ويزيده حلاوة ، ويقول في موضع آخر ، وله أصل في البلاغة وفرع في الفصاحة باسق شامل .

ومن العلماء من لم يشترط في الألوان قصد الكناية أو التورية حتى تكون من التدييح ، فذكر الألوان وحده يكفي لأن تدخل في باب التدييح كما في قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً) يس ٨٠ ، فكأنه جمع بين الأخضر والأحمر ، وهذا من التدييح البديعي^(٢) ومنه في الهمزة ما قاله بعض الشعراء :

وأحْبَبْتُ مِنْ جُهَا الْبَاخِلِينَ حَتَّى وَمَمَّتْ ابْنِ سَلَمٍ سَعِيداً
إِذَا سَيْلَ عُرْفاً كَمَا وَجْهَهُ ثِيَاباً مِنَ اللَّوْمِ بِيضاً وَسُوداً

مراعاة النظر^(٣) :

وهذا النوع سماه قوم بالتوفيق ، وآخرون بالتناسب ، وجماعة بالانتلاف وبعضهم بالمواخاة .

وهو عبارة عن الجمع بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد ، والمناسبة هنا عامة سواء

(١) الطراز - العلوي ٧٨/٣ ، ٧٩ .

(٢) البرهان في علوم القرآن - الزركشي ٤٥٧/٣ .

(٣) أنوار الربيع ابن معصوم ١١٩/٣ .

كانت المناسبة في اللفظ مع المعنى ، أو في اللفظ مع اللفظ .

فمن مناسبة اللفظ مع المعنى قوله عليه السلام^(١) :

(ألا أخبركم بأهل الجنة : كل ضعيف متضعف ، أغبر ذى طيرين ،
لأيوبه به ، لو أقسم على الله لأبره .

ألا أخبركم بأهل النار : كل عتُلّ جَوَّاز متكبر) . أتى في أهل الجنة بالفاظ
سهلة رقيقة ، وفي أهل النار بالفاظ جزلة شديدة ، فوقع التناسب بين الألفاظ
ومعانيها .

ومن مناسبة اللفظ مع اللفظ ، قوله تعالى :

(الشمس والقمر بحُساب) الرحمن ه فكل منهما مناسب للآخر فالشمس
آية النهار ، والقمر آية الليل ، ويشتركان في الإضاءة .

وقوله عليه السلام : (ذو الوجهين في الدنيا ذو اللسانين في النار) فناسب
بين الوجهين واللسانين .

ومن بديع هذا النوع قول بعضهم في آل بيت النبي رضي الله عنهم :

أنتم بنو طه ، ونون ، والضحى وبنو تبارك والكتاب المحكم
وبنو الأباطح ، والمشاعر . والصفاء والركن ، والبيت العتيق ، وزمزم
فأنه أحسن المناسبة في البيت الأول : بين أسماء السور ، وفي الثاني : بين الجهات
الحجازية .

ومن ذلك قول أبي العلاء المعري :

دع اليراع لقوم يفخرون به وبالطوال الرديئات فافتخر
فهن أقلامك اللاتي إذا كتبت مجدداً أتت بمداد من دم هدر

فناسب بين الأقلام والكتابة والمداد .

(١) عقود الجمان - السيوطي ٨٧/٢ .

تشابه الأطراف :

وهو أن يعيد الشاعر لفظة القافية في أول البيت الذي يليها ، فتكون الأطراف متشابهة .

أو يعيد النثر سجمة القرينة الأولى في أول القرينة التي تليها . ووقع ذلك في القرآن الكريم ، قال تعالى :

(وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الروم ٦ ، ٧ فأعاد فاصلة الآية الأولى في أول الآية الثانية . كما وقع في غير الفواصل ، كقوله تعالى :

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِ كَمِشْكَاتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ) النور ٣٥ .

ومن أمثله الشعرية قول ليلي الاخيلية تمدح الحجاج بن يوسف :

إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة	تبَّعَ أَقْصَى دَائِهَا فشفأها
شفأها من الداء العضال الذي بها	غلامٌ إذا هزَّ القنأة سقاها
سقاها فروأها بشرب سجالها	دماءَ رجالٍ يحلَّبون صَراها

ومنه قول أبي نواس :

خزيمَةٌ خيرٌ بنسي خازم	وخازمٌ خيرٌ بنسي دارم
ودارمٌ خيرٌ تميمٌ وما	مثل تميم في بني آدم

وفي هذا النوع من البديع دلالة على قوة عارضة الشاعر ، وتصرفه في الكلام وإطاعة الألفاظ له ، ولا يخلو مع ذلك من حسن موقع في السمع والطبع ، فإن معنى الشعر يرتبط ويتلاحم به ، حتى كأن معنى البيتين أو الثلاثة معنى واحد (١) .

ومن تشابه الأطراف نوع آخر يناسب المعنى ، وهو أن يتندىء المتكلم كلامه

(١) أنوار الربيع ٥٠/٣ .

بمعنى ، ثم يختمه بما يناسب ذلك المعنى الذي ابتدأ به ، فيعد قسماً من مراعاة
النظير ، كقوله تعالى :

(أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنْ
فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ، أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ
بِهِ زَرْعاً نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ) البقرة ٢٠٩ فقوله (أفلا
يسمعون) في ختام الآية الأولى يناسب قوله في أولها (أو لم يهد لهم) ؛ لأن الموعظة
سمعية ، وقوله في ختام الثانية (أفلا يبصرون) يناسب قوله في أولها (أو لم يروا) ؛
لأن الموعظة بصرية .

ومثله قوله تعالى :

(فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) البقرة
٢٠٩ ولم يقل في نهاية الآية : ان الله غفور رحيم بدلاً من عزيز حكيم ؛ لأن
الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ؛ لأنه إغراء عليه ، فتشابه الطرفين واضح
في الآية .

* * *

الضويف :

وهو إثبات المتكلم بفنون شتى ، كل فن في جملة منفصلة ، مع تساوي الجمل
في الوزن . كقوله تعالى :

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ
فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ
الَّذِينَ ، رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ) الشعراء ٧٨ - ٨٣ .

وكقوله تعالى :

(تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ،
وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) آل عمران ٢٧ .

وفي كلتا هاتين الآيتين من المحاسن بعد التفويف طرف من المحاسن يستفز العقول طرباً^(١) .

وكقول الشاعر :

ولو أن ما بي بالجيل لَدُكِدْكَتْ وبالنار أطفأها ، وبالماء لم يجر
وبالناس لم يحيوا ، وبالدهر لم يكن وبالشمس لم تطلع ، وبالنجم لم يسر
هذا النوع من التفويف يرجع إلى الألفاظ ، وهناك نوع آخر من التفويف يرجع إلى المعنى .

وضابطه : أن تصف المدوح بما يدل على مدحه من صفات المكارم وسمات المحامد ، ثم تورد صفات دالة على ذمه ، ولكن اقترن بها ما يرشد إلى كونها مدحا . ومثاله قول جرير :

همُ الاخيارُ مَنْسَكَةٌ وَهَدْيَا وفي الهيجا كأنهم صقور
بهم حذب الكرام على المعالي وفيهم عن مساويهم فتور
خلاتق بعضهم فيها كععض يوم كبيرهم فيها الصغير
عن النكراء كأنهم غبي وبالمعروف كأنهم بصير

فكل واحد من هذه الأبيات قد تضمن ما يرشد إلى الذم ، لكن اقترن به ما يخرجه إلى المدح :

فقوله : كأنهم صقور ، صفة ذم ؛ لأن من شأن الصقور الخطف والبغي ، لكنه لما اقترن بقوله : الهيجا ، كان مدحاً ؛ لأن الإنسان إذا كان في الحرب كالصقر يغلب غيره ويسلبه ، فهو مدح لا محالة .

وقوله : وفيهم عن مساويهم فتور ، الفتور هو الضعف والعجز ، وهذه صفة ذم ، لكنه لما اقترن بقوله : بهم حذب الكرام على المعالي ، صار مدحاً ؛ لأن الإنسان إذا كان مولعاً بالخصال السامية وكان متكاسلاً عن المساويء ، فهذا نهاية المدح .

(١) بديع القرآن ٩٨ - ٩٩ .

وقوله : يؤم كبيرهم فيها الصغير ، يكون ذمّاً ؛ لأنه لا خير في الكبير إذا كان مقتدياً بالصغير ، لكنه لما اقترن بقوله : خلّاق بعضهم فيها كبعض ، أفهم أن الصغير والكبير فيهم سواء في فعل المعروف والإحسان .

وهكذا قوله : عن التكراء كلهم غيبي ، وبالمعروف كلهم بصير ، فإن الغباوة صفة ذم ، ولكنها إذا اقترنت بقوله : وبالمعروف كلهم بصير ، كان دليلاً على المدح .

الأرصاد :

ويسمى التسهيم .

وهو أن يكون ما يتقدم من الكلام دليلاً على ما يتأخر منه . ومثل هذا النوع من البديع محمود في الكلام كله : نثره ونظمه ، وهو في كتاب الله تعالى أكثر من أن يحصى ، وما ذلك إلا لأن خير الكلام ما دل بعضه على بعض .

فمائدة الإرصاد : أنه يدل على براعة الناظم والناثر ؛ لأن أول الكلام لا يدل على آخره إلا لشدة ارتباطه به ، وذلك من أعلى المطالب .

ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى :

(مثل الذين اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ) العنكبوت ٤١ .

فإذا وقف السامع على قوله (وإن أوهن البيوت) فإنه يعلم لا محالة أن بعده بيت العنكبوت ، فدل المتقدم منه على المتأخر .

ومن ذلك قوله تعالى .

(فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) العنكبوت ٤٠ .

فإذا وقف السامع على قوله (ولكن كانوا) عرف لا محالة أن بعده ذكر ظلم النفوس ؛ لأن الكلام الأول فيه ما يدل عليه دلالة ظاهرة .

وقوله تعالى :

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافِرَ) سبأ ١٧ فإذا وقف السامع على قوله (وهل يجازي) بعد الأحاطة بما تقدم من الكلام ، فإنه يعلم بالضرورة ان بعدها لا يكون (إلا الكفور) .

وعلى ذلك ورد قوله تعالى :

(هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) الرحمن ٦٠ فإن السامع يتحقق بعد ذكر قوله تعالى (هل جزاء الأחסان) لا يكون (إلا الإحسان) ؟ لما في ذلك من الملاءمة الشديدة والتناسب الواضح .

وقوله تعالى : (أفأرأيتم ما تحرثون ، أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتم أنفسكم) الواقعة ٦٣ - ٦٥ فذكر الحرث يدل على الزرع ، والاعتداد بكونه سبحانه لم يجعله حطاماً ملائم لحصول الضحك به .

وقوله تعالى : (أفأرأيتم الماء الذي تشربون ، أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون) الواقعة ٦٨ .

فذكر الماء يدل على المطر الذي ينزل من السحاب بقدره الله .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم :

« فما بعد الموت من مُسْتَعْتَب ، وما بعد الدنيا من دار ، إلا الجنة والنار » .

فإن السامع إذا وقف على قوله (فما بعد الدنيا من دار) تحقق لا محالة أن بعده (إلا الجنة والنار) ؛ لما بينهما من شدة الملاءمة وعظيم المناسبة .

ومن هذا النوع قول الشاعر :

ولربما اعتصم الحليمُ بجاهلٍ لا خيرَ في يُعنى بغير يسارٍ

فإذا سمع السامع صدر البيت ، ثم وقف على قوله (لا خير في يمنى) تأكد
أن ما يأتي بعده قوله (بغير يسار) لما فيه من الملاءمة والمناسبة .

ومن ذلك قول زهير :

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

فالأزمة ثلاثة : ماض ، وحاضر ، ومستقبل ، فلما ذكر حكم الماضي
والحاضر ، عرف أنه لا بد من ذكر المستقبل وحكمه ، وهو الجهل بما يقع فيه ،
فلأجل ذلك كان الأرصاء فيه سابقاً معلوماً وهو أنه (عن علم ما في غد عم) .

ومن هذا النوع قول البخري :

فإذا حاربوا أذلوا عزيزاً وإذا سألوا أعزوا ذليلاً

فإن صدر البيت إلى قوله (وإذا سألوا) يدل على أن ما يأتي بعد ذلك لا بد
أن يكون أعزوا ذليلاً ؛ إذ لا يفد إلى الدهن غير ذلك .

* * *

المشكلة :

وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته . كقوله تعالى : (وَجَزَاءُ
سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) الشورى ٤٠ .

فالجزاء عن السيئة في الحقيقة غير سيئة ، والأصل : وجزاء سيئة عقوبة
مثلها .

وقوله تعالى : (تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ) المائدة ١١٦ .

والأصل : تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما عندك ، فالفه تعالى لا تستعمل في
حقه لفظة النفس ، إلا أنها استعملت هنا مشكلة لما تقدم من لفظ النفس .

وقوله تعالى :

(فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) البقرة ١٩٤
أي فعاقبوه وقوله تعالى :

(ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) آل عمران ٥٤ .

أي : أخذهم الله بمكرهم فيمد لهم في طغيانهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . ويقول أحد الباحثين^(١) : « و« لكنني أرى القرآن أجل من أن يسمى الشيء» بغير اسمه لمجرد وقوعه في صحبته ، بل أرى هذا التعبير يحمل معنى ، وجيء به ليوحي إلى القارىء بما لا يستطيع أن يوحي به ولا أن يدل عليه ما قالوا : إنه الأصل المعدول عنه . فتسمية جزاء السيئة سيئة ؛ لأن العمل في نفسه سوء ، وهو يوحي بأن مقابلة الشر بالشر ، وإن كانت مباحة ، سيئة يجدر بالإنسان الكامل أن يرفع عنها ، وكأنه بذلك يشير إلى أن العفو أفضل وأولى ، وعلى هذا النسق تماماً ورد قوله : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) .

ومما هو جدير بالذكر أن مثل هذه الآيات^(٢) عدّها قوم من مسائل علم البيان فهي مجاز مرسل علاقته السببية : من إطلاق السبب على المسبب .

وعدها آخرون من مسائل علم المعاني ، من حيث مخالفتها لمقتضى الظاهر وهي الآن من مسائل علم البديع ، من حيث إنها توجب تغير اللفظ . ومن المشاكلة قوله صلى الله عليه وسلم :

(أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل ، فعليكم من الأعمال بما تطيقون ، فإن الله لا يملأ حتى تملأوا) فعبّر عن قطع الثواب بالملل ، ولو وقع في صحبته وهو مما وقع فيه لفظ المشاكلة أولاً .

ومنه قول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فسمى جزاء الجهل جهلاً مشاكلة ؛ لأن الزيادة على جهل الظالم في مكافأة

(١) من بلاغة القرآن . أحمد بلوي ص ١٨٤ ط نهضة مصر ٣ .

(٢) عقود الجمان السيوطي ٩١/٢ ط مصطفى الحلبي .

ظلمه ، ليس ظلماً في اعتقاد الشاعر ، لأن الجهل عنده ما لا يكون له سبب يحال عليه عادة ، فإذا كان له سبب ، فليس يجهل .

* * *

المزاوجة :

وهي أن يزواج المتكلم بين معين في الشرط والجزاء .

أي : يجعل معينين واقعين في الشرط والجزاء مزدوجين : في أن يرتب على كل منهما معنى رتب على الآخر ، كقول ابن معصوم :

إذا تزواجَ إثمى ، فاقْتَضَى نِقَمِي حَقَّقْتُ فِيهِمْ رَجَائِي ، فاقْتَضَى نِعْمِي

زواج بين تزواج الأثم وهو الشرط ، وبين تحقيق الرجاء وهو الجزاء ، بأن رتب عليهما اقتضاء شيء : اقتضاء النعمة أو النعمة .

ومثله قول البحري :

إذا احتربت يوماً ، ففاضت دماؤها تذكّرت القربى ، ففاضت دموعها

زواج بين الاحتراب وتذكر القربى الواقعين في الشرط والجزاء ، في ترتب فيضان شيء عليهما : فيضان الدماء أو الدموع .

هذا هو معنى المزاوجة ، وليس معناها كما يسبق إلى الوهم^(١) :

أن يجمع بين معينين في الشرط ، ومعينين في الجزاء ، كما جمع في الشرط بين الاحتراب وفيضان الدماء ، وفي الجزاء بين تذكر القربى وفيضان الدموع .

ومن المزاوجة في القرآن ما ذكره السيوطي^(٢) في قوله تعالى :

(واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من

(١) أنوار الربيع ١٠١/٦ .

(٢) الأفتان في علوم القرآن ٩٤/١ .

الغَاوِينَ) الأعراف ١٧٥ قال : ومن المزاوجة هذه الآية « .

فقد زاوج بين إثبات الآيات واتباع الشيطان في الشرط والجزاء ، في ترتب شيء واحد عليهما وهو الغواية ، والانسلاخ عن الآيات في ذاته غواية .

• • •

العكس والتبديل :

وهو أن يُقدّم جزءٌ في الكلام ثم يُؤخر :

كقوله تعالى : (ما يَفْتَحُ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ، وما يُمْسِكُ فلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ) فاطر ٢ .

وقوله تعالى : (تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) آل عمران ٢٧
وقوله عليه السلام : (جَارُ الدَّارِ أَحَقُّ بِدَارِ الْجَارِ) .

وقوله عليه السلام : (إن الإنسان لیسرّه ذرّك ما لم يكن ليفوته ، ويسووه قوت ما لم يكن ليدركه) .

وقيل لمريض : كيف أنت ؟ فقال : أجد ما لا أشتهي ، وأشتهي ما لا أجد ، وأنا في زمان سوء ، من وجدّ لم يجد ، ومن جاد لم يجد .

ومنه قول أبي العيّن لأحد الوزراء : أنت والله تقرب منا إذا احتجنا إليك ، وتبعد عنا إذا احتجت إلينا .

ومن العكس والتبديل قول الشاعر الأضبط :

ويجسع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه
ويقطع الثوب غير لابسه ويلبس الثوب غير من قطعه

وقول بعضهم : إني أكره للرجل أن يكون مقدار لسانه فاضلاً عن مقدار علمه ، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلاً عن مقدار لسانه .

ومن غريب أسلوب هذا النوع ما ذكره ابن أبي الأصم^(١) في قوله تعالى :

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ، ومن أَحْسَنُ دِينًا مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)
فإن نظم الآية الأخيرة عكس نظم الآية الأولى ؛ لتقديم العمل في الأولى عن
الإيمان ، وتأخره في الثانية عن الإسلام .

هذا هو العكس والتبديل اللفظي .

ومن هذا النوع صنف معنوي استخرجه ابن أبي الأصم :

وهو أن يأتي الشاعر إلى معنى لنفسه أو لغيره فيعكسه^(٢) .

كقول الأخطل :

قد يُدْرِكُ التَّائِيَّ بَعْضُ حَاجَتِهِ وقد يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الرَّكْلُ

فقال الآخر :

وربما فات بعض الناس أمرهم مع التائي وكان الحزْمُ لو عجلوا

ومن هذا الصنف ما قاله أحد الشعراء :

إذا ما رأيت فتىً ماجداً فظنَّ بعقل آية السخفِ
فقد بلد النجب غير النجيب وهل يلد الدر إلا الصدفِ

هذا الشاعر يصف الأبناء بالذكاء والآباء بالسخف ، فيأتي شاعر آخر ويعكس
هذا المعنى ، فيصف الآباء بأنهم أمجاد ، والأبناء بأنهم مجردون عن الفضائل
فيقول :

(١) الإتيان في علوم القرآن ٩٢/١ ، بديع القرآن ١١١ سورة المدثر ١٢٤ .

(٢) خزنة الأدب ١٦٣ ، أنوار الربيع ٣٥١/٣ .

إذا ما رأيت فسي ماجدا فكن بابنه سيء الاعقاد
فلست ترى من نجيب نجيبا وهل تلد النار غير الرماد

* * *

التورية :

وهي : أن تكون الكلمة محتملة لمعنيين ، ويستعمل المتكلم أحد هذين الاحتمالين ويهمل الآخر ، ومراده ما أهمله لا ما استعمله (1) .

أو يكون للكلمة معنيان : قريب وبعيد ، ويراد البعيد منهما ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :

(قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم) يوسف ٩٦ فكلمة الضلال تحتمل معنيين : ضد الهدى ، وحب يعقوب عليه السلام لابنه يوسف ، فاستعمله أولاد يعقوب بمعنى ضد الهدى تورية عن الحب ؛ ليعلم أن المراد ما أهملوا لا ما استعملوا .

أو تقول على التعريف الثاني :

كلمة الضلال لها معنيان : قريب وهو ضد الهدى ، وبعيد : وهو الحب ، والمراد البعيد منها .

ومن التورية قوله تعالى :

(اذكُرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربّه) يوسف ٤٢ فكلمة (ربه) لها معنيان :

قريب بمعنى الإله سبحانه وتعالى . وبعيد بمعنى الملك وهو المراد في الآية .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في خروجه إلى بدر ، وقيل له : من أنتم ؟ فلم

(١) بدیع القرآن ١٠٢ ، الإفتان ٨٣/١ ، خزنة الأدب ٢٣٩ ، أنوار الربيع ٥/٥ ، نهاية الأرب ١٣١/٧ عقود الجنان ٩٤/٢ .

يرد أن يعلم السائل ، فقال : من ماء ، أراد : أنا مخلوق من ماء ، فورى عنه باسم قبيلة من العرب .

وقد سئل أبو بكر رضي الله عنه عن الرسول حين خروجهما من الغار إلى المدينة :

يا أبا بكر من هذا ؟ فقال : « هادٍ يهديني السبيل » . فالمعنى القريب : يهديني الطريق . والمعنى البعيد : يهديني سبيل الخير وهو المراد .

يقول الزمخشري : لا ترى باباً في البيان أدق ولا ألطف من التورية ، ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المتشابهات من كلام الله تعالى ، وكلام الأنبياء والصحابة .

ويقول الصفدي : ومن البديع ما هو نادر الوقوع ، ملحق بالمستحيل المنوع ، وهو نوع التورية والاستخدام ، فإنه نوع تقف الأفهام حسرى دون غايته عن مرمى المراد .

ومن أمثلة التورية .

قوله تعالى : (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ) الدهر ١٩ .
أي مقرطون تجعل في أذانهم الأقراط ، والحلق الذي في الأذن يسمى قرطاً وخذلة ، والسامع يتوهم أنه من الخلود .

وقوله تعالى : (وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَافًا لَهُمُ) القتال ٦ السامع يتوهم أن المراد العرف الذي هو الطيب . ولكنه أراد المعنى البعيد وهو أنه علمهم منازلهم فيها .

وقوله تعالى : (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ) التوبة ٢١
فذكر « رضوان » مع الجنات يوهم إرادة خازن الجنات .
والمراد : الرضوان الذي هو ضد السخط .

وقوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ) الولي الحميد (الشورى ٢٨) .

فكلمة الولي تحتل أن تكون من أسماء الله تعالى ، ومعناه : الولي لعباده بالرحمة والمغفرة ، والحميد : المحمود في السراء والضراء . وعلى هذا فالضمير « وهو » راجع إلى الله سبحانه وتعالى .

ويحتمل أن تكون كلمة الولي من أسماء المطر ، وهو مطر الربيع . والحميد أي : المحمود ، وعلى هذا فالضمير عائد على الغيث .

يقول العلوي^(١) :

والتورية لا تخلو عن تفنن في الكلام واتساع فيه ، وتدل على تصرف بالغ ، وقوة على تصريف الألفاظ ، واقتدار على المعاني ، فهي غير خالية عن فن من فنون البلاغة وعلم البديع ، وقد جرت عادة العلماء من أهل البلاغة على ذكرها والكلام عليها .

وقد تكون التورية مرشحة أو مبيّنة أو مجردة . فالتورية المرشحة : هي التي يذكر فيها ما يلائم المعنى القريب المورى به ، فيرشحه ويقويه وهو غير مراد ، وإنما المراد هو المعنى البعيد المورى عنه ، كقول الصاحب عطاء الملك في امرأة اسمها شجر :

يا حبذا شجر وطيب نسيمها لو أنها تُسقى بماء واحد
فكلمة شجر في هذا البيت لها معنيان :

قريب : وهو ما له ساق من النبات ، وقد رشحه ما يلائمه وهو طيب النسيم ، والسقي بماء واحد ، وهذا المعنى غير مراد .

وبعيد : وهو اسم المرأة التي وري عنها ، وهو المقصود في البيت .

والتورية المبيّنة : هي التي يذكر معها ما يلائم المعنى البعيد المورى عنه ، يقول ابن سناء الملك :

(١) الطراز : ٦٣/٣ .

أما والله لسولا خوفُ سخطك لهانَ على ما ألقى برهطك
ملكك الخافقين فتهدت عجا وليس هما سوى قلبي وقرطك

فكلمة الخافقين لها معنيان :

قريب : وهما المشرق والمغرب ، وهذا غير مراد .

وبعيد : وهما قلبه وقرط محبوبته ، وهو المعنى الموري عنه ، وقد نص عليه في الشطرة الأخيرة من البيت .

والتورية المجردة : هي التي لا يذكر معها ما يلائم المعنى القريب أو المعنى البعيد ، ومنه ما ذكره ابن الأثير في النهاية : فقد أخبر أن الرسول عليه السلام وأبا بكر رضي الله عنه حين كانا في طريق الهجرة من مكة إلى المدينة لقيهما رجل فقال من أنتم ؟ فقال أبو بكر : باغ ، وهاد .

فالمعنى القريب : أنه يعني الأبل والرسول يهديه الطريق .

والمعنى البعيد : أنه يعني الهداية والرسول يهديه عن الضلال وهو المراد ، وليس في التورية هنا ما يلائم المعنى القريب أو المعنى البعيد .

وأعظم أمثلة هذا النوع قوله تعالى : (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) طه ه
فإن الاستواء يطلق على معنيين :

الأستقرار في المكان ، وهو المعنى المقصود الموري عنه . والتورية هنا لم يجمع شيئاً مما يلائم الموري به أو الموري عنه .

الاستخدام :

وفيه مذهبان :

أحدهما : أن يؤتى بلفظ له معنيان أو أكثر مراداً به أحد معانيه ، ثم يؤتى بضمير مراداً به المعنى الآخر ، أو بضميرين مراداً بأحدهما أحد المعاني وبالأخر

المعنى الآخر ، وهذا هو مذهب الخطيب ومن تبعه ^(١) . كقوله تعالى :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ)
المؤمنون ١٢ ، ١٣ .

فالمراد بالإنسان في الآية آدم عليه السلام ، ثم أعاد الضمير عليه مراداً به ولده .

ومنه قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَكُمُ تُسْؤَلُكُمْ ، وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ تَبَدَّلَكُمُ عَمَّا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ، قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ) المائدة ١٠١ ، ١٠٢ فالضمير في قوله (قد سألها) يعود على (أشياء) ، والذي سأل عنه الأولون أشياء آخر تختلف عن الأشياء التي سأل عنها الصحابة المؤمنون ونهوا عن سؤالها ^(٢) .

ومن هذا النوع قول البحرى :

فسقى النضاً والساكنيه وإن هم شَبَّوه بين جوانح وقلوب فالنضاً يطلق على معنيين : واد بنجد ، وشجر معروف ، وقد عاد عليه ضميران ، أحدهما في « الساكنيه » والآخر في « شَبَّوه » فالضمير في الساكنية يعود على المكان ، وفي شَبَّوه يعود على الشجر .

ثانيهما : أن يؤتى بلفظ مشترك ، ثم بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين ، ومن الآخر الآخر . وهذه طريقة بدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦ هـ) في المصباح التي طرقها ابن أبي الأصبح من قبل (ت ٦٥٤ هـ) مثل قوله تعالى : (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ، يَسْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) الرعد ٣٨ ، ٣٩ فلفظة كتاب تحتمل معنى الأجل المحتوم معنى الكتاب المكتوب ، وقد توسطت بين كلمتي أجل ويمحو ، فلفظة أجل تخدم المعنى الأول ، ولفظة يمحو تخدم المعنى الثاني .

(١) الإيضاح ٥٠٢ ، أنوار البديع ٣٠٨/١ .

(٢) الاتقان ٨٤/١ .

ومنه قول المعري :

وفقيهه ألفاظه شِدْنٌ لِلنُّعْمَا ن ما لم يَشِدْهُ شعْرُ زيادٍ
ومعنى البيت أن ألفاظ هذا الفقيه شادت لأبي حنيفة النعمان من حسن الذكر
ما لم يشده شعر زياد للنعمان بن المنذر . وزياد هو النابغة الذبياني فكلمة « النعمان »
تحتل معنى أبي حنيفة كما تحتل معنى النعمان بن المنذر وقد توسطت كلمتي
« فقيه » و« شعر زياد » والأولى تخدم أبا حنيفة ، والثانية تخدم النعمان بن المنذر .
والطريقتان راجعتان إلى مقصود واحد ، وهو استعمال المعنيين بضمير وبغير
ضمير ، وهذا هو الفرق بين الاستخدام والتورية ، فإن المراد بالتورية هو أحد
المعنيين ، وفي الاستخدام كل من المعنيين مراد^(١) .

والأستخدام أعلى رتبة عند علماء البديع من التورية وأحلى موقعاً في الأنواق
السلمية ، وقلّ من ظفر به ؛ لصعوبته وقلة انقياده .

وكثيراً ما تلتبس التورية بالاستخدام ، والفرق بينهما :

أن التورية يستعمل فيها اللفظ بمعنيين فتريد أحدهما وتهمل الآخر .
وأن الاستخدام يستعمل فيه اللفظ بمعنيين وتريدهما معاً .

اللف والنشر :

وهو : ذكر متعدد على جهة التفصيل : بالنص على كل واحد ، أو على
جهة الأجمال : بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، وهذا هو اللف . ثم ذكر
ما لكل واحد من المتقدم من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرد كل واحد إلى ما يليق
به ، وهذا هو النشر .

وذكر المتعدد على جهة التفصيل ضربان :

الأول : أن يكون النشر على ترتيب اللّف ، بأن يكون الأول من النشر للأول من

(١) خزنة الأدب ٥٢ ، ٥٤ .

الف ، والثاني للثاني وهكذا ، وهذا الضرب هو الأكثر وروداً وشهرة .

والثاني : أن يكون النشر على غير ترتيب الألف .

فمما جاء على الترتيب قوله تعالى :

(ولا يجعلُ بِنكَ مَغْلُوبَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطُهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَحْسُورًا) الاسراء ٢٩ .

فاللوم راجع إلى البخل ، « ومحسوراً » راجع إلى الإسراف ؛ لأن معنى
محسوراً : منقطعاً لا شيء عنك .

وقوله تعالى :

(أَلَمْ يَجْعَلْ يَتِيمًا فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ، فَأَمَّا
الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) الضحى
٦ - ١١ .

فإن قوله : فأما اليتيم فلا تقهر ، راجع إلى قوله : ألم يجعلك يتيماً فأوى .
وأما السائل فلا تنهر ، راجع إلى قوله : ووجدك ضالاً فهدى ؛ لأن المراد بالسائل
هو السائل عن العلم كما قال المفسرون .

وأما بنعمة ربك فحدث ، راجع إلى قوله : ووجدك عائلاً فأغنى
ومنه قول الشاعر :

ألست أنت الذي من وُرد وجته وورد راحته أجنسى واغترف
فكلمة أجنى تعود على الورد ، واغترف تعود على الورد بمعنى العطاء . ومن هذا
النوع قول الشاعرة حميدة الأندلسية :

ولما أبى الواشون إلا فسراقنا وليس لهم عندي وعندك من نار
وشنوا على أسمعنا كل غارة وقل حماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وأدمعي ومن نفسي ، بالسيف والسيل والنار

فكل منها يعود على ما يليق به على الترتيب . وغاية القصد هنا أن يكون اللف والنشر

في بيت واحد خالياً من الحشو وعقادة التركيب ، جامعاً بين سهولة اللفظ والمعاني المخترعة^(١) .

والضرب الثاني من المفصل :

هو ما كان النشر فيه على غير ترتيب اللف ، كقوله تعالى :

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي
رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) آل عمران ١٠٦ ، ١٠٧ في اللف ذكر البياض أولاً
والسواد ثانياً .

وفي النشر ذكر السواد أولاً والبياض ثانياً على غير ترتيب اللف .

وكذلك قوله تعالى :

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ
الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ ؟ أَلَا إِنَّ
نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (البقرة ٢١٤) .
متى نصر الله هو قول الذين آمنوا .
ألا أن نصر الله قريب هو قول الرسول .

أما اللف والنشر المجلمل فهو : أن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر
أشياء على عدد ذلك ، وهذا النوع لا يتبين فيه ترتيب ولا عكس ، كقول ابن أبي
الحديد :

لو لا ثلاثٌ لم أخفُ صرعتي
أن أنصر التوحيد والعبد في
وأن أناجي الله مستمتعاً
وأن أتبه الدهر كبرا على
لذلك لا أموى فتاة ولا
ليست كما قال فتى العبد
كل مكان باذلاً جهدي
بخلوة أحلى من الشهد
كل لثيم أصغر الخسد
خمرأ ولا ذا ميعنة نهد

(١) خزانة الأدب ٦٨ .

فذكر في البيت الأول كلمة « ثلاث » على سبيل الأجمال ، ثم عدّد هذه الثلاثة واحداً بعد الآخر وهي : نصرّة التوحيد والعدل ، ومناجاة الله في خلوة ، وتصغير خده على كل لئيم .

ومثل ذلك قول القيسي الأندلسي :

لولا ثلاثٌ هنّ والله من حجّ لبيت الله أرجو به
والعلم تحصيلاً ونشراً ، إذا وأهل وودّ أسأل الله أن
ما كنت أخشى الموت أتى أتى
أكبر آسالي في الدنيا أن يقبل التوبة والسعي
زوّيت أو سعت الوري ربّنا يمتنع بالقبيا إلى اللقبيا
بل لم أكن ألتذّ بالمحيّا

وأجمل من هذا كله قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(انما يؤتى الناس يوم القيامة من احدى ثلاث)
أما من شبهة في السدين ارتكبوها .
أو شهوة لئنة آتروها .
أو عصية لحمية أعملوها .
فإذا لاحت لكم شبهة فاجلوهما باليقين ،
وإذا عرضت لكم شهوة فاقمعوها بالزهد ،
وإذا عنّت لكم عصية فادروها بالعضو ،

وكذلك قوله عليه السلام :

إن المرء بين يومين :
يوم قد مضى أحصى فيه عمله فحتم عليه .
ويوم قد بقى لا يدري لعله لا يصل إليه .

فقوله بين يومين لف مجمل ، لاشتغالها على ما يكون ماضياً ومستقبلاً ، وهذه فائدة اللف ، ثم انه نشرها بعد ذلك بقوله : يوم قد مضى أحصى فيه عمله ، فهذا يتناول الماضي ، ويوم قد بقى لا يدري ما يفعل فيه ، وهذا يتناول المستقبل .

فانظر ما حواه هذا الكلام من لطائف الأجمال والتفصيل ، واشتمل عليه من محاسن اللف والنشر ، ومن تأمل كلامه عليه السلام وجد فيه ما يكفي ويشفي من ذلك .

• • •

الجمع^(١) :

وهو أن يُجمع بين شيئين أو أشياء في حكم واحد .
كقوله تعالى : (المَالُ والبُنُونُ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا) الكهف ٤٧ جمع المال والبُنُون في الزينة .

وكقوله تعالى : (الشمسُ والقمرُ بحُسابٍ ، والنَّجْمُ والشَّجَرُ يسْجُدَان) الرحمن ٥ ، ٦ فقد جمع بين الشمس والقمر في الحساب ، وجمع بين النجم والشجر في السجود .

والمراد بالحسبان : الحساب المعلوم المقدر الذي لا يسبب اختلافاً ولا اضطراباً ، والمراد بالسجود : الانقياد .

التفريق :

وهو أن يباين بين أمرين أو أكثر من نوع واحد اشتركت فيه ، وقد فرق بينهما ؛ ليفيد زيادة أحدهما على الآخر .

كقوله تعالى :

(وما يَسْتَوِي البَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) فاطر

. ١٢

وكقوله تعالى :

(١) الاقنآن ٩٢/١ ، عقود الجمان ١٠٨/٢ ، خزنة الأدب ٣٥٧ أنوار الربيع ١٦٨/٥ .

(وهو الذي مرج البحرين : هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج) الفرقان
٥٢ فقد فرق بين البحرين فجعل أحدهما عذبا والآخر ملحا .

الجمع مع التفريق :

وهو : أن يدخل شيان في معنى واحد ، ويُفرق بين جهتي الإدخال .

كقول الفخر عيسى :

تشابه دمعانا غداة فراقنا مشابهة في قصة دون قصة
فوجنتها تكسو المدامع حمرة ودمعي يكسو حمرة اللون وجنتي

فقد جمع بين الدمعين في الشبه ثم فرق بينهما بأن دمعها أبيض ، فإذا جرى
على خدها صار أحمر بسبب احمرار خدها ، وأن دمه أحمر لأنه يبكي دما ،
وجسده من النحول أصفر ، فإذا جرى عليه الدمع حمره .

التقسيم :

وهو استيفاء المتكلم أقسام الشيء بحيث لا يتأدر شيئا . كقوله تعالى :

(وكنتم أزواجا ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب
المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون) الواقعة ٧ - ١٠ فأصحاب
المشأمة هم الظالمون لأنفسهم ، وأصحاب الميمنة هم المقتصدون ، والسابقون هم
السابقون بالخيرات .

وكذلك قوله تعالى : (لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ
رَبُّكَ نَسِيًّا) مريم ٦٤ فاستوفى أقسام الزمان ولا رابع لها .

وقوله تعالى : (هو الذي يرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا) الرعد ١٢ فليس في
رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار ولا ثالث لهما .

وقوله تعالى : (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ) آل عمران

١٩١ فلم يترك سبحانه قسماً من أقسام الهيئات .

ومنه الآية الكريمة التي اعتاد علماء البديع أن يستشهدوا بها وهي قوله تعالى :
(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا
وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا) الشورى ٤٩ ، ٥٠ .

قسم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود ، لأنه سبحانه
إما أن يفرد العبد بهبة الأنثى ، أو بهبة الذكور ، أو يجمعهما له ، أو لا يهب
شيئاً .

وجاءت كل عطية بلفظ الهبة ، وتدرج فيها من الأدنى للأعلى . فبدأ بهبة
الأنثى ، ثم هبة الذكور ثم هبتهما معاً .

وعدل عن لفظ الهبة إلى لفظ آخر وهو « ويجعل » لما فيه من معنى الحرمان
فكان هذا العدول للتغاير بين المعاني .

وبدأ بالأنثى : إما جبراً لهن لاستئصال الأبوين لمكانهن ، أو لضعفهن ،
وعند الضعف والعجز تكون العناية أتم ، أو أنه قدم ذكر ما كانت تؤخره الجاهلية
من أمر البنات حتى كانوا يثنونهن ، أي هذا النوع الحقيق عندكم مقدّم عندي
في الذكر .

وتأمل كيف عرف سبحانه الذكور بعد تنكير الأنثى ، فجبر نقص الأنوثة
بالتقديم ، وجبر نقص المتأخر بالتعريف ، فإن التعريف تنويه .

الجمع مع التقسيم :

وهو : الجمع بين أشياء متعددة تحت حكم واحد ، ثم يقسم ، أو العكس
أي : يقسم ثم يجمع .

فمن الأول قوله تعالى :

(ثم أورثنا الكتابَ الذين اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، ومنهم

مُقْتَصِدٌ ، ومنهم سابق بالخيرات) فاطر ٣٢ .

أي جعلنا القرآن الموحى به إليك ميراثاً منك لأمتك التي اصطفيناها على سائر الأمم ينتفعون بما فيه من الأحكام والمواعظ والأمثال .

فجمع بينهم في الاصطفاء ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع :
ظالم لنفسه يرتكب صفائر الذنوب الذي يؤدي إلى نقصانه من الثواب .
ومقتصد معتدل في أمر الدين لا يميل إلى إفراط أو تفريط .
وسابق لغيره في أمور الدين فترجح حسنانه على سيئاته . وكلهم من أهل الجنة .

ومن ذلك بيت صفى الدين :

أبادهم : فليت المال ما جمعوا والروح للسيرف والأجساد للرخم

جمع بينهم في الابادة ثم قسم :

ما جمعه من مال لبيت المال ، وأرواحهم للسيرف ، وأجسادهم للرخم .

وقول ابن جابر :

والمال والماء في كفيه قد جريا هذا لراج ، وذا للجيش حين ظمى

قد جمع بين المال والماء في الكفين ثم قسم :

المال لمن يرجوه من الفقراء ، والماء ليروي به الجيش .

الجمع مع التقسيم والتفريق :

كقوله تعالى : (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِأُذُنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ،
فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنْفِقُونَ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتُ السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ، وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَيُنْفِقُونَ فِي الْجَنَّةِ
خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ)

هود ١٠٥ - ١٠٨ .

فالجمع في كلمة نفس ، أي كل نفس ، لأن النكرة في سياق النفي تعم .
والتفريق في قوله : فمنهم شقي وسعيد .

والتقسيم ففي قوله : فأما الذين شقوا صفتهم كذا ، وأما الذين سعدوا صفتهم
كذا .

يقول العلوي^(١) : هذه الأمور الثلاثة : التفريق والجمع والتقسيم من عوارض
البلاغة ، وإذا وقعت في الكلام بلغ مبلغاً عظيماً في حسن التأليف وإعطاء الفصاحة
حقها .

التجريد :

يقول ابن جنى^(٢) : اعلم أن هذا فصل من فصول العربية طريف حسن ،
وضرب من العربية غريب ، وقد وجد أستاذه أبا علي الفارسي مولعاً به معنياً .

والتجريد هو : أن تأتي بكلام يكون ظاهره خطاباً لغيرك وأنت تريد خطاباً
لنفسك ، فتكون قد جردت الخطاب عن نفسك ، وأخلصته لغيرك .

مثال ذلك قول الشاعر :

إلام يراك المجدُّ في زيِّ شاعرٍ	وقد نحلّت شوقاً فروغ المنابرِ
كتمت بعبّ الشعرِ جِلماً وحكمة	بعضها يتقادُ صعبُ المفاخرِ
أما وأبيك الخبيرِ انك فارس الـ	مقال ومحبي الدارسات الغوائرِ
وأنتك أعبيت المسامح والنهسي	بقولك عما في بطون الدفاترِ

ألا تراه في جميع هذه الخطابات ظاهرها يشعر بأنه يخاطب غيره ، والغرض
خطاب نفسه .

(١) الطراز ١٤١/٣ .

(٢) الخصائص - ابن جنى ٤٧٣/٢ ط دار الكتب .

الطراز ٧٣/٣ ، البرهان في علوم القرآن - الزركشي ٤٤٨/٣ ط

عيسى الحلبي .

عقود الجمان ١١٣/٢ ، أنوار الربيع ١٥٣/٦ .

هذا نوع من التجريد ، وهناك نوع آخر :

وهو أن يجعل الخطاب لنفسك على جهة الخصوص دون غيرها ، كقول الشاعر
أقول للنفس تأساءً وتعزيباً
أحدى يدي أصابني ولم
فقد جرد من نفسه شيئاً آخر ووجه إليه الخطاب .

وأمثلة التجريد غزيرة سواء في القرآن الكريم ، أو في الشعر ، أو في محاور
الناس . وقد نبه السبكي على أن التجريد لا يختص بحال الخطاب ، وإنما
بهذا الأسم لكونه أكثر استعمالاً ووروداً من غيره .
فمن أمثلة القرآن ، قوله تعالى :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّ
الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ) آل عمران ١٩٠ .

فظاهر الآية ان في العالم من نفسه آيات ، وهو عينه ونفسه تلك الآيات
وكقوله تعالى : (وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) البقرة ٢٦٠ وإنما هنا ناب
قوله : وأعلم أي عزيز حكيم .

وقوله تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) الأحزاب
ورسول الله نفسه أسوة حسنة أي : قدوة .

وقوله تعالى : (لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ) فصلت ٢٨ .

ليس المعنى أن الجنة فيها دار خلد ، وغير دار خلد ، بل كلها دار خلد
فكانت لما قلت : في الجنة دار الخلد اعتقدت أن الجنة منطوية على دار نعيم
أكل وشرب وخلد ، فجردت منها هذا الواحد .

وذكر الزمخشري^(١) أن في قوله تعالى :

(فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ) الرحمن ٣٧ فيها تجريد

(١) الكشاف الزمخشري ٣٥٨/٤ .

قراءة رفع وردة بمعنى حصلت منها سماء وردة .

وذكر ابن جنى في قراءة ابن عباس عن قوله تعالى :

(يرثني وارثٌ من آل يعقوب) مريم ٦ أنه من التجريد وذلك أنه يريد :
وهب لي من لذك ولأ يرثني منه وارث من آل يعقوب ، وهو الوارث نفسه ،
فكانه جرد منه وارثاً .

والتجريد على أقسام :

أحدها : أن يكون بمن التجريدية الداخلة على المترع منه ، كقولهم : مررت منه
بالرجل الكريم والنسمة المباركة . جردوا من الرجل الكريم والنسمة المباركة آخر
مثله متصفاً بصفة البركة ، وعطفوه عليه كأنه غيره ، وهو هو في نفس الأمر .

ومن ذلك قول الشاعر :

لي منهم سيف إذا أجردتته يوما ضربت به رقاب الأعصر
الثاني : أن يكون بالياء ، كقول الشاعر :

دعوت كُلياً دعوةً فكانمنا دعوت به ابن الطور أو هو أسرع

جرد من كليب شيئاً يسمى ابن الطور وهي الصدى ، يريد به سرعة اجابته .
الثالث : أن يكون بنى ، كقول الشاعر :

أفءات بنو مروان ظلماً دماءنا وفي الله إن لم يعدلوا حكماً عدل
فجرد منه تعالى حكماً عدلاً ، وهو هو .

الرابع : أن يكون بدون حرف ، كقول قتادة بن مسلمة الحنفي :

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة تحوي الغنائم أو يموت كريم
أراد بالكريم نفسه ، فكانه انتزع من نفسه كريماً مبالغة في كرمه ، ولذا لم يقل :
أو أموت .

وللتجريد فائدتان :

الأولى : طلب التوسع في الكلام ، فإذا كان الكلام ظاهراً خطاباً لغيرك ، وباطنه خطاباً لنفسك ، فإن ذلك من باب التوسع .

الثانية : أن يتمكن المتكلم من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه ، إذ يكون مخاطباً بها غيره ؛ ليكون أعذر ، وأبرأ من العهدة فيما يقوله ، غير محجور عليه^(١) .

وهو من محاسن علوم البديع ولطائفه ، وقد استعمل على ألسنة النصحاء كثيراً .

المبالغة :

ابن قتيبة يتناول المبالغة من خلال الاستعارة عندما يقول : « فتراهم يقولون حين يريدون المبالغة في وصف المصيبة عند موت أحد : أظلمت الشمس له ، وكسف القمر لفقده ، وبكت الرياح والأرض والسما »^(٢) .

وقدامة بن جعفر^(٣) يرى النقاد منقسمين حول الغلو في المعنى ، واتصافه بالحسن أو القبح ، ولم تكن ثمة حدود تعرف بها درجة الحسن أو القبح في المعاني المبالغ فيها حتى تدخل مجال الاستحالة ، فنراه يقطع برأي في هذه القضية ، وهو أن الغلو أفضل من التوسط ، وهو الذي ذهب إليه أهل البصر بنقد الشعر وأخذ به فلاسفة اليونان ، ويحتاط قدامة لما يستشعره القارئ أو السامع ، لما في الغلو من خروج عن الواقع إلى المستحيل ، فيبرر هذا الخروج إلى حد الاستحالة أو العدم بأنه صار بمنزلة المثل الذي يضرب للشيء إذا أريد وصفه بنهاية العظم أو غاية الحقارة . وهنا عنده أحسن من مذهب التوسط والاعتدال . إلا أن هذا الرأي يحسن المبالغة التي تخرج عن حدود الواقع إلى المستحيل آثار عاصفة من الجدل بين أوساط المتأخرين ، فرفضه قوم وأخذ به آخرون :

(١) المثل السائر - ابن الأثير ١٦٣/٢ ط نهضة مصر .

(٢) تأويل مشكل القرآن ١٣٧ .

(٣) انظر أثر النحاة في البحث البلاغي .

أخذ به الرماني^(١) ومثل له بقوله تعالى : (لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) الاعراف ٤٠ كما أخذ به آخرون ذكرهم ابن رشيق^(٢) .

ورفضه قوم على رأسهم حازم القرطاجني ، فراه يقف على التقيض من رأي قدامة ومن أخذ به كالرماني مدعياً « أن العلماء بصناعة البلاغة متفقون على أن ما أدى إلى الإحالة قبيح ، وقد خالف في هذا جماعة من لا تحقيق عنده في هذه الصناعة ، ولا بصيرة له بها ، فاستحسنوا من المبالغة ما خرج عن حد الحقيقة إلى حيز الاستحالة ، واحتجوا بمطالبة النابتة حسان بن ثابت بالمبالغة في أوصافه حين أنشده قوله :

لنا الجففاتُ الفُسرُ يلمعنَ بالضحَى وأسيافنا بقطرَنَ من نجلدِ دَمًا
فقال له : قلت أجفانك وسيوفك ، ولو قلت الجفان والسيوف ، لكان أبلغ ، والبصراء بصناعة البلاغة ، العارفون بما يجب فيها يقولون :

إنما طالب النابتة حسانا بمبالغة حقيقية وهي تكثير الجفان والسيوف ، فاستدرك عليه التقصير عما يسكن فيما وصف ، ولم يطالبه بتجاوز غاية الممكن والخروج إلى ما يستحيل^(٣) .

ولا شك أن ما زعمه القرطاجني بأن العلماء بصناعة البلاغة متفقون على أن ما أدى إلى الإحالة قبيح ، فيه مغالطة . فابن طباطبا^(٤) وقدامة والرماني قد أشادوا بالمبالغة ، وخاصة هذا النوع الذي يخرج إلى حد الاستحالة أو المعلوم ، وكتبهم وآراؤهم تشهد بعلو كعبهم في فهم أشعار العرب ، وتذوق أسرار القرآن الكريم .

كما أن الآمدي وهو إمام النقاد قد ارتضى هذا النوع من المبالغة واستحسنه في الخروج إلى المحال فيقول : « وقد يبالغ الشاعر في أشياء حتى يخرج منها إلى المحال ، ويخرج بعضها مخرج النواذر ، فيستحسن ولا يستقبح نحو قول الشاعر :

(١) النكت ٩٧ .

(٢) السنة ٥٣/٢ .

(٣) منهاج البلاغ وسراج الأدياء ١٣٣/١٣٤ ط تونس .

(٤) عيار الشعر ٤٥ - ٦٧ ط التجارية .

من رأى مثل حيتي تشبه البدر إذا بسنا
تدخل اليوم ثم تدخل أردافها غلنا

ومثل هذا كثير ، وقد بالغ النابغة في وصف عتق المرأة بالطول فقال :

إذا ارتعتّ خاف الجبان ارتعائها ومن يتعلق حيثُ غلقَ يفرق
فيجعل القرط يخاف أن يسقط من هناك فيهلك ، وإنما أخرج هذا كالمثل : أي :
لو كان مما يقع فيه الخوف لخاف^(١) .

والمرزباني^(٢) يرى أن المبالغة عند أهل العلم بالشعر أحسن من الاقتصار على
الأمر الوسط ، وكذلك الشريف المرتضى^(٣) يرى أنها حسنة ، وسبب الحسن
ما فيها من صنعة وتألق . فالمبالغة فضيلة لا تنكر ، ولو كانت معيبة لما أتت في
القرآن الكريم على وجوه شتى ، ولبطلت الاستعارة والتشبيه وكثير من محاسن
الكلام ، وكلها مبنية على المبالغة .

وهذا النوع من الكلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

مبالغة ، إغراق ، غلو .

فالمبالغة : هي إفراط وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة .

والإغراق : وصف الشيء بالممكن البعيد وقوعه عادة .

والغلو : وصف الشيء بما يستحيل وقوعه .

فمن أمثلة المبالغة قوله تعالى :

(يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا)

الحجج ٢ فالذهول والوضع المذكوران ، مبالغة في وصف يوم القيامة بالشدة ، وهما
ممكنان في العقل والعادة ، فاستحسن المبالغة .

(١) الموازية ١/١٤٩ .

(٢) الموشح ٢٣١ ط نهضة مصر .

(٣) آمالي المرتضى ١/٩٦ ط الطبعي .

ومن المبالغة قول الرسول عليه السلام :

(والذي نفسُ محمد بيده لَحَلَوٌ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللَّهِ أَطِيبٌ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ) فأضافة الصيام إلى الله سبحانه دون سائر الأعمال لقصد المبالغة في تعظيمه وشرفه ، ومبالغة في تعظيم الثواب له .

وفيه مبالغة أخرى وهي : أن رائحة فم الصائم المتغيرة بسبب الإمساك عن الطعام والشراب أطيب من ريح المسك الذي هو أعطر الطيب .

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر :

أَقَمْتُ أَنْسَاهَا وَأَتْرَكَ ذِكْرَهَا حَتَّى تُغَيَّبَ فِي الشَّرَابِ عِظَامِي
فَنَسِيانَ الْمَحْبُوبَةِ وَتَرَكْتُ ذِكْرَهَا حَتَّى الْمَمَاتِ أَمْرٌ مُمْكِنٌ قَرِيبُ الْوُقُوعِ فِي السَّعَادَةِ .
أَمَّا الْأَغْرَاقُ : وَهُوَ الْمُمْكِنُ الْوُقُوعِ فِي الْعَقْلِ وَإِنْ كَانَ بَعِيدَ الْوُقُوعِ فِي الْعَادَةِ ،
فَكَقُولِ حَسَانٍ فِي وَصْفِ الْحَرْبِ :

تَشِيبُ الْعِذْرَاءُ الْعِلْرَاءُ فِيهَا وَيَسْقُطُ مِنْ مَخَافَتِهَا الْجَنِينُ
فَشِيبَ الْعِذْرَاءِ فِي الْحَرْبِ مُمْكِنٌ عَقْلًا دُونَ عَادَةٍ ، أَوْ هُوَ بَعِيدُ الْوُقُوعِ عَادَةً ،
أَمَّا سَقُوطُ الْجَنِينِ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ فَهُوَ مِبَالِغَةٌ ؛ لِأَنَّهُ مُمْكِنُ الْوُقُوعِ عَقْلًا وَعَادَةً .
وَمِنَ الْأَغْرَاقِ قَوْلُ حَسَانٍ أَيْضاً :

لَوْ يُدْبُ الْحَوْلَى مِنْ وَلَدِ النَّرِّ عَلَيْهَا لِأَنْدَبَتِهَا الْكُلُومُ
أَي إِذَا مَشَى عَلَى جِلْدِهَا النَّمْلُ الصَّغِيرُ لِأَثَرِ فِي جِلْدِهَا وَأَصَابَهَا بِالْجُرُوحِ لَشِدَّةِ رِقَّتِهِ .
وَهَذَا أَمْرٌ مُمْكِنٌ عَقْلًا لِإِعَادَةِ .

ومنه قول أبي الطيب :

كَأَنِّي هَلَالُ الشُّكِّ لَسَوْلَا تَأْوِهِي خَفِيتُ فَلَمْ تَهْدِ الْعَيُونَ لِرُؤْيِي
وقوله أيضاً :

كفى بجسمي نحولاً انني رجل لولا مخاطبتي اياك لم ترني
ومثل ذلك قول بشار :

في خلتي جسم فتى ناحل لو هبت الريح به طاحا
وقول أبي تمام بدمع المعتصم :

تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تطغه أنامله
ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فلبتق الله سائله
فهذه الآيات وما شابهها معانيها ممكنة في العقل إلا أنها بعيدة الوقوع في العادة .

” ” ”

أما الغلو : وهو وصف الشيء بما يستحيل وقوعه عقلا وعادة .
فإن أفضى إلى الكفر كان قبيحا مردودا ، وإلا كان مقبولا ، والمقبول يتفاوت
في الحسن ، وأحسنه ما دخل عليه ما يقربه إلى الصحة مثل كاد ، ولو ، ولولا
وأداة التشبيه .

كقوله تعالى : (يَكَادُ زَيْبُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَنْسُئْهُ نَارُ) النور ٣٥ فإن
إضاءة الزيت دون مس النار له مستحيلة عقلا وعادة ، ولكن دخول يكاد التي
تفيد المقاربة أخرجته عن الامتناع ، لأنها دلت على مقارنة الأضياء دون الأضياء
نفسها التي هي مستحيلة .

وقوله تعالى : (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) ٤٣ النور
فإن اقتران هذه الجملة بيكاد بصرفها إلى الحقيقة ، فانقلبت من الامتناع إلى
الأمكان .

ومثل ذلك قوله تعالى : (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزَلُّونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ
لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) القلم ٥١ .

أي يهلكونك بأبصارهم من شدة النظر إليك بالعداوة والبغضاء . ومن الغلو
المستحسن قول ابن المعتز :

يكاد يجري من القميص من الـ نعمة لولا القميص بمسكه
فالغلو هنا مقبول لدخول كاد ولولا ؛ لأن المعنى مبني على المقاربة لا الحقيقة .

ومثال الغلو الذي دخل عليه لو قول البحري :

لو أن مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليك النير
وقول أبي الطيب^(١) :

عقدت سنايها عليها عيسراً لو تبغني عنقاً عليه لأمكننا
فالذي قربه إلى الصحة دخول لو عليه ، وصدر هذا البيت لاغلو فيه إطلاقاً .

ومثال الغلو المقترن بأداة التشبيه قول ابن نباتة :

كم ليلة بت أشكو من تناولها على والليل داجي القلب كافرهُ
وأرقب الشهب فيها وهي ثابتة كأنما شرت منها مساميرهُ

وقد ورد في القرآن الكريم هذا النوع من المبالغة المرتبطة بأداة التشبيه كقوله
تعالى : (إِنَّمَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ ، كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ) المرسلات ٣٢ ، ٣٣
ومن هذا القبيل قوله تعالى :

(سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ
بِالنَّهَارِ) الرعد ١٠ .

فجعل من يسر القول كمن يجهر به ، والمستخفي بالليل كالسارب بالنهار
أي ظاهر يبصره كل أحد . وهذه المبالغة بالنسبة إلينا لا إلى الله عز وجل .

يقول ابن رشيقي : وكل واحد منهما أشد مبالغة في معناه وأتم صنعة ، وهذا
من معجز المبالغة^(٢) .

(١) إن سنايك الخيل آثارت كثيراً من الغبار ، ولو أرادت الخيل أن تسم عليه لأمكنها ذلك لكثرة
وصلابه .

(٢) السمة ٧٦/٢ .

وقد يأتي الغلو بدون أداة تقريب ويكون مستحسناً كقوله تعالى : (وَبَلَّغْتَ
الْقُلُوبَ الْحَنَاجِرَ) الأحزاب ١٠ .

فالقلوب لا تبلغ الحناجر وأصحابها أحياء .

وقوله تعالى : (وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَسَازِلَ مِنْهُ الْجِبَالُ) ابراهيم ٤٦ .
وقوله تعالى : (وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) الاعراف ٤٠
وكل ما ورد في القرآن من الغلو مقبول مستحسن .

أما الغلو المردود القبيح الذي يجب اجتنابه ، فهو ما آل بصاحبه إلى الكفر
والاستخفاف بقدرة الله تعالى ، أو المدح الذي لا يليق إلا بجنابه عز وجل ، سواء
اقترن بأداة تقريب أو لم يقترن .

كقول أبي نواس في مدح الرشيد :

فلا يتعلَّرنَّ عليك عَفْسُو وَسِعَتْ بِهِ جَمِيعَ الْعَالَمِينَا
وهذا إنما هو عفو الله سبحانه لا عفو الرشيد .

وقوله في مدح الفضل بن العباس :

بِرَاهِ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ فَمَا تَجَوَّزَ قُطْرَيْهِ كَفُّ مَخْلُوقِ

وكقول المتنبي :

لَوْ كَانَ عِلْمُكَ بِالْإِلَهِ مَقْسَمًا أَوْ كَانَ لَفْظُكَ فِيهِمْ ، مَا أَنْزَلَ

وقوله :

يَتَرَشَّقْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ أَخْلَى مِنَ التَّوْحِيدِ
ومن الغلو الشنيع قول ابن هانئ الأندلسي في المعز لدين الله :

مَا شِئْتَ لَا مَا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ فَاحْكُمِ فَإِنَّ الْوَاحِدَ الْقَهَّارُ
وَكَأَنَّمَا أَنْتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ وَكَأَنَّمَا أَنْصَارُكَ الْأَنْصَارُ
أَنْتَ الَّذِي كَانَتْ تَبَشِّرُنَا بِهِ فِي كِتَابِ الْأَخْبَارِ وَالْأَخْبَارُ

والشعراء المشهورون بالاستكثار من الغلو المردود والقبیح :
أبو نواس والمنتبسی وابن هانسیء الأندلسی وهو أشهرهم بذلك ، وأبو العلاء
المعری .

• • •

المذهب الكلامي^(١) :

وهو أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريقة أهل الكلام . والقرآن مشحون
بهذا النوع .

يقول السيوطي : « فإن قلت : إن هذا النوع ليس من البديع ؛ لأنه يخلو
من تحسين معنى الكلام المقصود ، بل المعنى المقصود هو منطوق اللفظ ، فالأتيان
بهذا الدليل هو المقصود ، فهو تطبيق على مقتضى الحال ، فيكون من المعاني
لا من البديع .

قلت : إخراج الكلام في المحاورة على غير توقع ، وإبرازه في صورة المقاصد
العلمية فيه زائد على أصل تأدية المراد ، فلا بد أن يكون موجباً للتحسين من هذه
الجهة .

ومن أمثله قوله تعالى :

(قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) الزخرف ٨١ .
أي : إن صح بالبرهان القاطع ذلك ، فأنا أول من يعظم ذلك الولد ، ويسبقكم
إلى طاعته ، كما يعظم الرجل ولد الملك ، واللازم منتف بالمشاهدة فكذا للزوم .

وقوله تعالى :

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ، لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ

(١) انظر في هذا الموضوع بدیع القرآن ٣٧ ، الاقنآن ١٣٥/١ ، عقود الجمان ١١٨/٢ نهاية الأرب ١١٤/٧ ،
حسن التوسل ٢٢١ ، الصناعین ٤١٠ ، أنوار الربیع ٣٥٦/٤ .

آلهة ما وُردوها وكلٌ فيها خَالِدُونَ (الأنبياء ٩٨ ، ٩٩ .

إن هذه الأصنام والطواغيت التي تعبدونها من دون الله وقود جهنم ، ولو كانوا آلهة ما كانوا وقوداً لجهنم ، فيلزم من ذلك أن هؤلاء ليسوا بآلهة .

وقوله تعالى :

(وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) الاعراف ٤٠ .
أي لا يدخل الكفار الجنة أبداً ، حتى يليج الجمل في خرم الأبرة ، والجمل لا يدخل في خرم الأبرة أبداً ، فهم لا يدخلون الجنة أبداً .

ومن ذلك ما جاء رداً على منكري البعث حين قالوا :

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ أَلِيمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ) النحل ٣٨ .
وقال تعالى : (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) الاعراف ٢٩ .
وقال تعالى : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) الأنبيات ١٠٤ .
وقال تعالى : (أَفَعَيِّنَا بِالْمَخْلُوقِ الْأَوَّلِ) ق ١٥ .

ومن بديع ما ورد من هذا النوع قوله تعالى :

(وفي الأرضِ قطعٌ متجاوراتٌ وِجَنَاتٌ من أعنَابٍ وَرِزْقٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) الرعد ٤ .

كانوا يرون أن الأرض إذا تباعدت أطرافها اختلفت التربة فكان منها الطيب والخبيث ، ويستبعد ذلك في المتقارب منها .

فبين الله لهم أن في الأرض قطعاً متجاورات يقرب بعضها من بعض وتسقى بماء واحد ، وتختلف في مذاقها وطعمها . على العكس من ادعائهم بأن اختلاف الأكل راجع إلى اختلاف التربة أو اختلاف الماء .

ومن ذلك قول مالك بن المرحل الأندلسي :

لو يكون الحسبُ وصلأ كلُّهُ لم تكن غايته الا المللُ

أو يكون الحب هجراً كله لم تكن غايته إلا الأجل
إنما الوصل كمثل الماء لا يستطاب الماء إلا بالفصل

قاس الشاعر الوصل على الماء ، فكما أن الماء لا يستطاب إلا بعد العطش ،
فالوصل مثله لا يستطاب إلا بعد الهجر .

ومن شواهد هذا الباب قول الفرزدق :

لكل امرئ نفسان : نفسٌ كريمةٌ ونفسٌ يُعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسك تشقح للندى إذا قلّ من أحرارهن شقيعها

يقول : لكل إنسان نفسان : نفس مطمئنة تأمره بالخير ، ونفس أمارة تأمره
بالشر . والإنسان يعاصي الأمارة مرة ويطيعها أخرى ، فإذا أمرتك النفس الأمارة
بترك الندى جاهدتها النفس المطمئنة وشفعت إليها في الندى ، في الحالة التي يقل
فيها ذلك من النفوس فانت أكرم الناس .

* * *

حسن العليل^(١) :

وهو أن يدعي لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي بحيث لا
يكون علة له في الواقع ، وإلا لما عد من محسنات الكلام ؛ لعدم التصرف فيه :

فمن ذلك ما قاله الشاعر في وصف غلام تحت حنكه خال :

حبنا الخال كأميناً منه بين الد خدّ والجيد رقبة وحادراً
وام تقيله اختلاسا ولكن خاف من سيف لجظه فتوآرى

فظهر الخال تحت الحنك ليست له علة في العادة ، ولكن الشاعر عله

(١) انظر في هذا الموضوع : تحرير التحبير ٣١٠ ، أنوار الربيع ١٣٦/٦ ، سر الفصاحة ٣٢٧ ، عقود الجمان
١٢١/٢ نهاية الأرب ١١٥/٧ ، خزنة الأدب ٤١٦ ، الطراز ١٣٨/٣ .

بعلة مناسبة طريفة فقال : إن الخال ود تقبيل الغلام خلصة ولكنه خشى من سيف
لحظه فتواري تحت الحنك .

ومن ذلك قول جمال الدين الحلبي :

ولما نضا وجه الريح نقابه وفاحت بأطراف الرياض النسائم
فطارت عقول الطير لما رأينه وقد بهتت من بينهن الحمام
خشين جنوناً بالرياض وحسنا فرحجن وفي أعناقهن التائبم

وقد يأتي الشاعر بعلة غير المعروفة على سبيل الاستحسان ، كقول ابن رشيق
القيرواني في تعليل قول الرسول عليه السلام :

(وجُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً) .

سألت الأرض لِمَ جُعِلت مُصَلًى ولمَ كانت لنا طهوراً وطيباً
قالت غير ناطقة : لأنسي حويت لكل إنسان حياً

فقد جعل لكون الأرض مسجداً وطهوراً علة مناسبة لطيفة : وهي انها حوت
في باطنها حياً لكل إنسان .

وقد يريد الشاعر أن يثبت وصفاً غير ثابت ، إلا ان إثباته أمر ممكن كقوله :

ولقد هممتُ بقتلها من حبها كما تكون خصيمتي في المحشر
حتى يطول على الصراط وقوفنا فيلذ عني من لذيد المنظر

فقد ادعى الشاعر أمراً غير ثابت ولا معتاد ، وهو همّ العاشق بقتل محبوبته ،
وعلله بطول الوقوف معها للمخاصمة يوم المحشر على الصراط فتلذذ عينه بالنظر
اليها .

وقد يكون اثباته غير ممكن كمعنى بيت فارس ذكره الخطيب القزويني (1) :
لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطيق

(1) الإيضاح ٥٢٢ .

فالشاعر أراد أن يثبت وصفا غير ممكن ، وهو : نية الجزاء خدمة المدوح ،
وجعل الانتطاق علة له .

• • •

تأكيد المدح بما يشبه اللم (١) :

وهو ضربان :
أحدهما : أن يستثنى من صفة ذم منفية صفة مدح بتقدير دخولها فيها كقوله
تعالى :

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهِمُ الْأَقْبِلُ سَلَامًا سَلَامًا) الواقعة ٢٥ ، ٢٦ أي
لا يسمعون في الجنة ما لا يعتد به من الكلام أو كلاما قبيحا ، أو فيه إثم . فهذه
صفة ذم منفية ، فإذا جاء الاستثناء أو هم أن ما يأتي بعده صفة ذم حتى يخرج
من الكلام السابق ، فإذا جاءت صفة مدح تؤكد المدح السابق ، لأنه بعد مدح .
فكان كالدعوى التي يصحبها الدليل .

ومن هذا الضرب قوله تعالى :

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تُنْفِقُونَ مِمَّا إِنْ أَنْزَلْنَا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ
قَبْلُ) المائدة ٥٩ .

فلاستهام هنا انكاري في قوة النفي أي لا تنفقون منا ، وهذه صفة ذم
منفية ، فإذا جاء بعد ذلك الاستثناء أو هم أن ما بعده صفة ذم ، ولكنه أتى بصفة
مدح : وهي الايمان بالله وما أنزل اليهم ، فكان مدحا بعد مدح ، وهذا تأكيد
للمدح بما يشبه اللم .

ومن ذلك قول أبي هفان :

(١) انظر في هذا الموضوع . تحرير التخبير ١٣٣ ، بديع القرآن ٤٩ ، الصناعين ٤٠٨ ، حسن التوسل ٢٢٩
أنوار الربيع ٢٧/٦ ، الطراز ١٣٦/٣ ، خزنة الأدب - البغدادي ٣٣٤/٣ .

ولا عيبَ فِينَا غيرَ أنَّ سَمَاحَنَا أُضْرَبْنَا والبَأسَ من كلِّ جانبِ
فَأَفْتَى الرِدَى أَعْمَارَنَا غيرَ ظَالِمِ وَأَفْتَى النَّدَى أَمْوَالَنَا غيرَ عَائِبِ
أَبُونَا أبٌ لو كَانَ للنَّاسِ كُلِّهِمْ أَباً وَاحِداً أَغْنَاهُمْ بِالمُنَاقِبِ

فنفى العيب أولاً ، ثم استثنى منه السماح ، والسماح صفة مدح لا ذم ، فكان مدحاً بعد مدح ، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم .

ويمكنك أن تقيس على ذلك قول الشاعر :

ولا عيبَ فِيهِ غيرَ أنَّ ذَوِي النَّدَى خِيسَاسٌ إِذَا قِيسُوا بِهِ وَلِئَامُ
وقول الشاعر :

ولا عيبَ فِيهِم غيرَ أنَّ ضِيوفَهُمْ تُعَابُ بِنَشِيَانِ الأَحْبَةِ وَالمِوْطَنِ
والثاني : أن تثبت للشيء صفة مدح وتعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى له ، كقول النابغة الجعدي :

فَتَى كَمَلْتَ أخْلَاقَهُ غيرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُقْسَى مِنَ المَالِ بَاقِيَا
فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوءُ الأَعَادِيَا

فقد أثبت له صفة مدح أعقبها بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى ، فكان مدحاً على مدح ، فهو بمثابة تأكيد المدح من جهة ، وهو يشبه الذم من جهة أخرى ، لأن الاستثناء يوهم بذلك ، ويقدر الاستثناء متقطعاً فيكون المعنى فتى كملت أخلاقه لكنه جواد .

ومن ذلك قول ابن المغربي الوزير :

وَيُعْدِلُ فِي شَرْقِ البِلَادِ وَغُسْرِيهَا عَلَى أَنَّهُ لِلسَيْفِ وَالمَالِ ظَالِمُ
فمدحه بالعدل أولاً وهذه صفة مدح ، ثم مدحه ثانياً بأنه محارب وكريم ، فهو ظالم لسيفه وظالم لئاله . فأكد المدح .

وينطبق هذا الضرب على قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(أنا أفصح العرب بيد أئني من قريش) .

وفائدة هذا الأسلوب : إثبات المحاسن وسلب المساوىء ، فتتضاعف المحاسن ،
وتؤكد في الممدوح لدى الناس ، لأن كل إنسان مهما اشتمل عليه من صفات
الحسن ، لا يسلم من بعض المساوىء .

تأكيد اللم بما يشبه المدح :

وهو ضربان أيضاً :

أحدهما : أن يستني من صفة مدح منفية صفة ذم بتقدير دخولها فيها :
كأن تقول : فلان لا خير فيه إلا أنه حسود ، وفلان لا علم له إلا أنه سيء الخلق ،
وفلان لا قيم لديه إلا أنه يمشي بين الناس بالنميمة .

وثانيهما : أن يثبت للشيء صفة ذم يعقبها بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى له :
كأن تقول : فلان سيء الخلقة إلا أنه سيء الخلق . وفلان جاهل إلا أنه فاسق .
وفلان جبان إلا أنه بخيل .

ومما يجب التنبيه إليه أن الاستثناء لا يعدّ من المحسنات البديعية إلا إذا تضمن
معنى زائداً على المعنى اللغوي للاستثناء الذي يختص به علم النحو ، كما رأينا
في هذا هذا الباب .

التوجيه^(١) :

وهو أن يكون الكلام محتملاً لوجهين من غير تقييد بمدح أو غيره ، ويسميه
بعضهم بالأبهام :

ومثاله من القرآن :

(مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يَحْرَفُونَ الْكَلِيمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ
غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّيْتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ) النساء ٤٦ فغير مسمع قول ذو
وجهين :

(١) عقود الجمان ١٣٠/٢ ، الأنوار ٥/٢ .

يحتمل الّذم : أي أسمع منا مدعوا عليك بلا سمعت فكان أصم غير مسمع ،
ومعناه غير مسمع جواباً يوافقك وترضاه فكانك لا تسمع شيئاً .

ويحتمل المدح : فيكون المعنى اسمع كلاماً غير مسمع مكروها .

وكذلك كلمة (راعنا) أي أرقبنا وانتظرنا نكلمك ، وتحتمل معنى الّذم ؛
لأن هذه الكلمة شبه كلمة عبرانية يتسابون بها وهي راعينا ، فكانوا سخرية
بالدين وهزءاً بالرسول ، يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والأهانة ،
ويظهرون به التوقير والاحترام .

ومن ذلك قول الرسول عليه السلام : (إذا لم تَسْتَحْ فَاصْنَعْ ما شئت) .

فانه يحتمل المدح والذم فمعنى المدح : إذا لم تفعل فعلا تستحي منه فاصنع
ما شئت .

ومعنى الّذم : إذا لم يكن لك حياء يسئلك فاصنع ما شئت .

وقوله أيضاً في شرح الحضرمي وهو أحد الصحابة :

(ذاك رجل لا يتوسد القرآن) يحتمل وجهين :

أحدهما المدح : وهو انه ينام الليل حتى يتوسد القرآن معه .

والثاني الّذم : وهو انه ينام ولا يتوسده معه أي لا يحفظه .

وقوله أيضاً : (من جُئل قاضياً فقد ذُبح بغير سكين) .

يحتمل المدح بأنه من شدة مايعانيه من الوفاء بحقوق المسلمين وقع في تعب عظيم
كتعب من ذبح بغير سكين .

ويحتمل الّذم بأنه وقع في ظلم الناس ، فهو هالك على وجه شديد الألم كمن
ذبح بغير سكين .

ومن ذلك ما قاله أبو مسلم الخراساني يوماً لسليمان بن كثير : إنك كنت
في مجلس وقد جرى ذكرى فقلت :

« اللهم سودّ وجهه ، واقطع رأسه ، واسقني من دمه » .

فقال : نعم قلت ذلك ونحن جلوس بكرم حصرم ، فاستحسن توجيهه وعفا عنه .

ومن أمثلة التوجيه الشعرية قول المتنبي في مدح كافر :
وغير كثير أن يسزورك راجل فيرجع ملكاً للعراقين والسيما
ظاهر البيت : أن من رآك أفاد منك المعالي .
وباطنه : أن من رآك على ما بك من النقص وقد أصبحت ملكاً ، ضاق صدره
أن يقصر عما بلغته وألا يتجاوز ذلك إلى كسب المكارم ، وكذلك إذا رآك الراجل
لا يستكثر لنفسه أن يرجع والياً على العراقين .
وقوله فيه :

يدلّ بمعنى واحدٍ كل فاحسر وقد جمع الرحمن فيك المعانينا
قال ابن جنى :
لما قرأت هذا البيت ضحكت وضحك أبو الطيب ، وعرف مطلوبي ومثل ذلك
قوله :

يضيق على من رآه العذر أن يرى ضعيف المساعي أو قليل التكرم
ظاهره : أن من يراه ولم يتعلم منه فهو غير معذور ولا يصح أن يكون قليل التكرم
ضعيف المسعاة ، وهذا مدح .
وباطنه : أن مثله في خسته ولؤم طباعه إذا كانت له مسعاة وتكرم ، فلا عذر لأحد
بعده في تركه ، وهذا ذم .

• • •

الهزل الذي يراد به الجدل^(١) :

هنا نوع من البديع لطيف المسلك رشيق المأخذ وهو عبارة عن أن يقصد
المتكلم غرضاً من الأغراض سواء أكان مدحاً أم ذماً أم غيره من غزل أو شكوى

(١) الأنوار ١٦٦/٢ الإيضاح ٥٣٠ .

أو اعتذار فيخرج مقصوده مخرج الهزل المعجب والمجون المطرب . كقول الشاعر
وقد دعى إلى طعام ، فأخر صاحب الدعوة الطعام إلى المساء وجعل يجيء ويذهب
في داره :

يا ذاهباً في داره جائياً
قد جُنّ اضيافك من جوعهم
بغير ما معنى ولا فائدة
فأقرأ عليهم سورة المائدة
ومن طريقه قول أبي العتاهية :

أصابت علينا جودك المعين يا عمراً
سنزقيك بالأشعار حتى تملأها
فتحن لها نبغي التمام والنشر
فإن لم تحقق منها رقيناك بالسور
وقوله أيضاً :

أرقيك أرقيك باسم الله أرقيك
من بخل نفسك على الله يشفيك
وواضح أن هذه الأبيات قد أخرجها الشاعر في صورة الهزل وأراد بها الجدل الذي
يحمل في طبقاته السخرية اللاذعة والهجاء المقذع ، ولكن الذي ضعف من وطأة
هذا الهجاء ما أبداه الشاعر من الهزل في تصويره هذه المعاني .

ومن أمثله هذا النوع في غير الهجاء قول ابن الهبارية :

يقول أبو سعيد إذ رأني
على يد أي شيخ تبت ؟ قل لي
عفيصاً منذ عام ما شربت
قللت : على يد الإفلاس تبت
فان هذا ظاهره المجون والخلاعة ، والمراد هنا الجد ؛ لأن المقصود هو شكوى
الإفلاس .

وفي هذا المعنى قال البهاء زهير :

قالوا : فلان قد غدا تائباً
قلت : متى كان وأنتى له
واليوم قد صلى مع الناس
وكيف ينسى لذة الكاس ؟
أمس بهلني العين أبصرته
سكران بين الورد والآس
ورحمت عن توبته سائلاً
وجدتها توبةً إفلاس

أما التهكم : فهو الخطاب بلفظ الأجلال في موضع التحقير ، والبشارة في موضع التحذير ، والوعد في مكان الوعيد ، والعذر في موضع اللوم ، والمدح في موضع السخرية .

فمن الخطاب بلفظ الأجلال في موضع التحقير قوله تعالى :

(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) الدخان ٤٩

ومن البشارة في موضع التحذير قوله تعالى :

(بِشِّرَ الْمُتَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ لَهْمٌ عَذَابًا أَلِيمًا) النساء ١٣٨ .

وقوله : (قَبِّضْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) آل عمران ٢١ .

ومن الوعد في موضع الوعيد ، قوله تعالى :

(وَإِنْ يَسْتَفِيئُوا يُعَذِّبْهُمْ بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ) الكهف ٢٩ .

فهذا ضد الأغاثه .

ومن العذر في موضع اللوم قول أبي الحديد :

عذرتكما إن الحمام لم يفض وان حياة النفس للنفس محبوب

ومن التهكم قول ابن الرومي :

فياله من عمل صالح يرفضه الله إلى أسفل

ولا بن دنيا في رجل أحذب :

قما بحسن قوامك الفتان يا أوحد الأمراء في الحدبان

يا مُخجلا شكل الهلال بقده حاشاك أن تعزي إلى نقصان

والعود أحذب وهو الهى مطرب ولقد سمعت بنعمة العيدان

وكذا سفين البحر لولا حذبه في ظهره لم يقو للطوفان

وقد ذكر ابن أبي الأصبح أن التهكم من مخترعاته^(١) والحق أن التهكم كان

معروفاً من قبل في كتب البلاغيين على أنه من الاستعارة التهكمية ، فالزمخشري يذكر التهكم في تفسيره لقوله تعالى : (لَهُ مَعْقِبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ أَمْرٌ اللَّهُ) الرعد ١١ يقول : إن المعقبات هم الحرس من حول السلطان يحفظونه بزعمه من أمر الله على سبيل التهكم ، فانهم لا يحفظونه إذا جاء . ويمكن أن يقال إن ابن أبي الأصعب أول من أدخله في أنواع البديع .

والفرق بين التهكم والهزل الذي يراد به الجد :

أن التهكم ظاهره جد وباطنه هزل .

والهزل الذي يراد به الجد ظاهره هزل وباطنه جد على عكس التهكم .

والفرق بين التهكم واللم في معرض المدح : ان المقصود بالتهكم السخرية والاستهزاء .

أما الثاني فان ظاهره لا يدل إلا على المدح حتى يقترن به ما يفهم ان المقصود به الهجاء .

تجاهل العارف^(١) :

هو أن تسأل عن شيء موهماً أنك لا تعرفه ، وأنه مما خالجتك فيه الشك والريبة .

قال السكاكي : لا أحب تسمية هذا النوع بهذا الاسم لوروده في كلام الله ، وسماه : سوق المعلوم مساق غيره لنكتة ، ونكت التجاهل أكثر من أن تضبط كالمبالغة في المدح أو الذم أو التعظيم أو التحقير أو التوبيخ أو التقرير ، أو التعريض أو التعجب ، إلى غير ذلك .

(١) تحرير التحبير ٩٤ .

(٢) بديع القرآن ٨٠ ، تحرير التحبير ١٣٥ ، خزنة الأدب ١٢٢ ، عقود الجمان ١٣٥/٢ ، الطراز ٨٠/٣ ، أنوار الربيع ١١٩/٥ .

قال صاحب الطراز : هو مقصد من مقاصد الاستعارة نقل الى فنون البديع
ويبلغ به الكلام الذروة العليا ، ويحل في الفصاحة المحل الأعلى .

فمثال ما خرج مخرج التعجب قوله تعالى :

(أَبْشَرْنَا مِنَّا وَاحِدًا تَتَّبِعُهُ) القمر ٢٤ .

ومنه قول نصر بن سيار :

أرى نخل الرمادِ وميضَ جَمْرٍ وبُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ
فإنَّ النَّارَ بِالزَّنْسِدِينَ تُورِي وإنَّ الحَرْبَ أَوْلَهَا كَلَامُ
أقولُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِي أَلْيَقَاطُ أَمِيَّةٌ أَمْ يَسَامُ

ومثال ما خرج مخرج التوبيخ قوله تعالى :

(أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ) هود
٨٧ ومثله قول حسان بن ثابت :

أتهجوه ولست له بكفاء فشركما لخيركمما القداء

ومثال ما خرج مخرج التقرير قوله تعالى :

(أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا اِبْرَاهِيمَ) الأنبياء ٦٢ .

(أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ اهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) المائدة ١١٦ .

ومنه قول جرير :

ألسُّمَّ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَابَا وأندى العالمين بَطْسُونَ راح

ومثال ما جاء للمبالغة في المدح قوله تعالى :

(مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) يوسف ٣١ .

فقد كان حسن يوسف عليه السلام رائعاً ، وله مع الروعة نور وطلاقة ، وعليه

سكينة تؤمن ناظره من تلك الروعة ، وثبت قلبه لما يسري إليه من سكينة ، فكان تشبيهه بالملك الكريم أصح وأوقع وأشد مطابقة من أكثر الجهات .

ومن ذلك قول الشاعر :

بدا فراع فؤادي حنُّ صورته

فقلت : هل ملكٌ ذا الشخص أم ملكٌ ؟

وقول أبي فراس :

تائلني من أنت ؟ وهي عليمه وهل بقي مثلي على حاله نكر ؟

وقول التهامي :

فقلت أوجهُ لاح من تحت برقع أم البدرُ بالغيم الرقيق تبرعاً ؟

وقد يكون التجاهل لنكته التحقير كقوله تعالى حكاية عن الكفار :

(هل ندلكم على رجلٍ ينبتكم إذا مرَّ قثمٌ كلُّ مُسْرَقٍ إنكم لفي خلقٍ
جديد) سبأ ٧ يعنون محمداً عليه السلام كأن لم يكونوا يعرفون منه إلا أنه رجل
ما ، وهو عندهم أظهر من الشمس .

وكقول الشاعر :

يقولون هذا عندنا ليس ثابتاً ومن أتم حتى يكون لكم عند ؟

وقد يكون الغرض التعريض ، كما جاء في قوله تعالى :

(وإنا أو إناكم لعلّ هدى أو في ضلالٍ مبين) سبأ ٢٤ فهذا تعريض بأن
الكافرين في ضلال والرسول على هدى ، لأنهم لو تفكروا في أحوال أنفسهم
وما هم فيه من الأغارات بالحروب وأرتكاب الفواحش وقطع الأرحام ، وحال
الرسول والمؤمنين وما هم عليه من إيثار للسلام ، واجتناب للآثام وصلة للأرحام ،
عرفوا أنهم على ضلال ، والرسول وصحبه على هدى .

القول بالموجب^(١) :

هذا نوع من البديع غريب المعنى ، لطيف المبني ، راجح الوزن في معيار البلاغة ، مفرغ الحسن في قالب الصياغة .

وهو ضربان :

الأول : أن تثبت صفة لشيء فتنتقل هذه الصفة إلى شيء آخر ، دون أن تتعرض للأول بالأثبات أو النفي ، كقوله تعالى :

(يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ ، وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) المناقون ٨ .

فإنهم كانوا بالعزة عن فريقهم ، وبالأذل عن فريق المؤمنين ، وأثبتوا للأعز الأخراج ، فأثبت الله العزة لذاته ولرسوله وللمؤمنين ، من غير تعرض للمناقين بإثبات صفة العزة لهم أو نفيها عنهم .

الثاني : حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله الكلام ومن ذلك قوله تعالى :

(وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يَوَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ) التوبة ٦١
نعم ، هو أذن ، ولكن نعم الأذن ، أي هو أذن كما قلتم ، إلا أنه أذن خير ، لا أذن سوء ، فصلوا بذلك المذمة ، ولكن فسره بما هو مدح له ، ولا شيء أبلغ في الرد من هذا الأسلوب ؛ لأن فيه إطماعاً في الموافقة ، وكرماً إلى إيجابهم في الإبطال .

والأذن هو الرجل الذي يصلق كل ما يسمع ، ويقبل كل ما يقال ، كأن جملة أذن سامعة .

(١) بديع القرآن ٣١٤ ، تحرير التحرير ٥٩٩ ، حسن التوسل ٣٠٥ ، عقود الجمان ١٣٧/٢ ، خزنة الأدب ١١٦ أنوار الربيع ١٩٨/٢ .

ومن ذلك قول الصفدي :

ولقد أتيت لصاحبي وسألته في قرص دينارٍ لأمر كانا
فأجابني : والله داري ما حوت عينا ، فقلت له : ولا إنسانا

أراد المخاطب بالعين : الدرهم والدينار ، فحمله الشاعر على الجارحة المعروفة
مما يحتمله الكلام .

ومنه أيضاً قوله :

وصاحب لما أتاه الغنى تاة ونفس المرء طمأحة
وقال : هل أبصرت منه يداً تشكرها ؟ ، قلت : ولا راحة

أراد باليد : النعمة ، فحملها الشاعر على اليد الجارحة على خلاف مراد السائل .
ومنه قول الشاعر :

ولما أتاني العاذلون عدمتهم وما فيهم الا للحمى قارض
وقد بهتوا لما رأوني شاحباً وقالوا : به عين ، فقلت : وعارض

ومن ذلك قول ابن دويبة المغربي في رجل أودع مالا لقاض فادعى ضياعه :

إن قال قد ضاعت ، فيصدق أنها ضاعت ، ولكن منك يعني لو تعي
أو قال : قد وقعت ، فيصدق أنها وقعت ، ولكن منه أحسن موقع

* * *

والقول بالموجب يشترك مع أسلوب الحكيم في أن كلا منهما من إخراج
الكلام على غير مقتضى الظاهر ، ولكنهما يفترقان باعتبار الغاية :
فإن القول بالموجب غايته رد كلام المتكلم وعكس معناه .

وأسلوب الحكيم ، هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على
خلاف مراده ، تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد ، أو السائل بغير ما يتطلب بتتزيل
سؤاله منزلة غيره ؛ تنبيهاً على أنه الأولى بحالة ، أو الأهم له .

فالأول كقول القبعثري للحجاج لما قال له متوعداً بالقيد : لأحملنك على الأدهم ، فقال : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب .

فانه أبرز وعيده في معرض الوعد ، وأراه بالطف وجه بأن مثله خليق بأن يُصْفِدَ لا أن يُصَفِّدَ ، أي يمنح العطاء لا يقيد بالأغلال .

وكنا قوله ثانياً : ويلك إنه حديد : لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً . فقد حمل القبعثري كلام الحجاج على خلاف مراده ، حيث حمل القيد الحديدي على أنه فرس نشيط لا بليد .

وأما الثاني وهو الأجابة عن السائل بغير ما يتطلب بتزليل سؤاله مترله سؤال آخر كقوله تعالى :

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ . قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ) البقرة ١٨٩ .

فقد سألوا عن أحوال الأهله وتغيرها من الدقة إلى الاستواء والامتلاء ، ثم عودتها مرة أخرى إلى ما كانت عليه من الضالة والدقة . فأجابهم عن شيء آخر هو أنفع لهم وأجدى عليهم ، وهو أن يعلموا منها أوقات الطاعات .
وكقوله تعالى :

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ؟ قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) البقرة ٢١٥ .

فقد سألوا عن بيان ما ينفقون ، وأجابهم عن بيان المصارف والجهات التي يجدر الأنفاق فيها ، فهي الأهم بالسؤال ؛ لأن النفقة لا يعتد بها إلا إذا وقعت موقعها ، وكل ما فيه خير هو صالح للأنفاق .

وأنت إذا تأملت مواقع هذا النوع ، ظهر لك كمال الفرق بينه وبين القول بالموجب أتم ظهور ، وجزمت بخطأ من جعلها واحداً كأبن حجة حينما يقول : القول بالموجب ويقال له أسلوب الحكيم .

• • •

الاطراد^(١) :

وهو من طرد الماء إذا جرى في سهولة بلا توقف .

والمراد به هنا : أن يذكر الشاعر أسم المملوح واسم من أمكنه من آبائه على الترتيب ؛ ليزداد إيابة وتوضيحاً على نسق مستقيم من غير تكلف في النظم ولا تعسف في السبك ، حتى يكون ذكر الأسم في سهولته كاطراد الماء وسهولة جريه وسيلاته .

والاطراد غير الاستطراد .

فالاستطراد أن تذكر كلاماً ثم تدخل عليه كلاماً أجنبياً عنه ، ثم ترجع إلى الأول ، والاطراد قد ذكرنا المراد به .

ومن أمثلة الاطراد قول الأعشى :

أَقْبِسُ بِنِ مَسْعُودِ بِنِ قَيْسِ بِنِ خَالِدٍ وَأَنْتِ امْرُوءٌ يَرْجُو شَبَابَكَ وَائِلُ
وكقول الشاعر :

مَنْ يَكُنْ رَامَ حَاجَةً بَعُدَتْ عَنْهُ وَأَعْيَتْ عَلَيْهِ كَلَّ الْعِيَاءِ
فَلَهَا أَحْمَدُ الْمَرْجِيُّ ابْنُ يَحْيَى بِنِ مَعَاذِ بِنِ مَسْلَمِ بِنِ رَجَاءِ

وكقولك في نسب الأمام زين العابدين هو :

علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب .

ومن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(الكريم ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم : يوسفُ بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم) .

(١) بدیع القرآن ، ١٤١ ، التحرير ٣٥٢ ، الطراز ٩٣/٣ ، حسن التوسل ٢٨٤ خزائن الأدب ١٦٠ .

وقد ورد الاطراء في القرآن الكريم ، كقوله تعالى :

(وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي اِبْرَاهِيمَ واسْحَقَ ويعقوب) يوسف ٣٨ .

وفي هذه الآية لم يتدعى بالأب الذي جاء من صلبه ثم بالأعلى فالأعلى كما هي القاعدة ؛ لأنه مجرد ذكر الآباء ، وإنما أراد أن يذكر الملة التي اتبعها ، وهي الملة الحنيفية التي ابتدأها ابراهيم عليه السلام ثم يذكر من أخذها عنه على الترتيب ، فاقترضت البلاغة ذكر اسحق بعد ابراهيم ، ويعقوب بعد اسحق .

ومثل ذلك ما حكاه سبحانه عن أولاد يعقوب عليهم السلام بقولهم : (قالوا نَعْبُدُ آلَهُكُمْ وَاٰلَهُ اَبَائِكُمْ اِبْرَاهِيمَ واسْمَاعِيلَ واسْحَقَ) البقرة ١٣٢ وتخرجه كآلية السابقة .

أما ذكر الأمهات والجدات فليس محموداً عند البلغاء وأهل العلم بشعر المدح ؛ لما فيه من إنزال قدر الممدوح ، وإنما كان هذا مكروهاً ؛ لأن شرف الانسان إنما يكون بالرجال لا من جهة النساء .

وقد عيب على أبي نواس في مدحه لمحمد بن الأمين ذكره لأمه في مدحه حيث قال :

أَصْبَحْتَ يَا ابْنَ زَيْدَةَ ابْنَةَ جَعْفَرٍ أَمْلاً لِعَقْدِ حِيَالِهِ اسْتِحْكَامُ
فإن هذا قبيح في مثل هذا المقام .

وكذلك قوله :

وليس كجَدَّتَيْهِ أُمِّ مُوسَى إِذَا نُسِبَتْ وَلَا كَالْحَيْزُرَانِ

وصفي الدين الحلبي له تعريف آخر للاطراء وهو :

ذكر اسم الممدوح ولقبه وكنيته وصفته اللاتمة به ، واسم من أمكن من أبيه وجده وقبيلته ، في بيت واحد بلا تعسف ، ولا انقطاع بألفاظ أجنبية كقول بعضهم :

مؤيد الدين أبو جعفر محمد بن العلقمي الوزير

فهذا البيت جمع في الناظم بين اللقب والكنية واسم المندوح واسم أبيه والصفة
اللائقة به .

وما ذكر الحلّى ليس بالمشهور .

• • •

الفصل الثاني

المحسنات اللفظية

من المحسنات اللفظية : الجناس :

وهو تشابه الكلمتين في اللفظ ، واختلافهما في المعنى .

وفائدته : الميل إلى الأصغاء إليه فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً وإصغاء إليها ؛ ولأن اللفظ إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر ، كان للنفس تشوق إليه ، وهو من أطف مجاري الكلام ، ومن محاسن مداخلة ، بل هو من الكلام كالغرة في وجه الفرس .

والجناس أنواع متعددة نذكر أهمها :

١ - الجناس المستوفي التام :

أن يأتي المتكلم بكلمتين متضقتين لفظاً ، مختلفتين معنى ، لا تفاوت في تركيبهما ولا اختلاف في حركاتهما . سواء كان من أسمين ، أو فعلين ، أو من إسم وفعل ، أو أسم وحرف .

فإن كانا من نوع واحد سمي مماثلاً .

وإن كانا من نوعين مختلفين سمي مستوفياً .

وهذا النوع من أكمل أصناف التجنيس وأرفعها رتبة وأولها في الترتيب مثال ذلك من القرآن الكريم :

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) الروم ٥٥ فالمراد

بالساعة الأولى : يوم القيامة ، وبالثانية : الساعة الزمنية .

وقوله تعالى : (يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ يَقْلَبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ) النور ٤٣ ، ٤٤ .

فالأبصار في الآية الأولى معناها الأنظار ، وفي الثانية معناها العقول .

ومن ذلك قول المعري :

معانيك شتى والعبارة واحد فطرفك مُغْتَالٌ وَزَنْدُكَ مُغْتَالٌ
فمغْتَالُ الْأُولَى بِمَعْنَى مَهْلِكٌ ، وَالثَّانِي بِمَعْنَى مَمْتَلَىءٌ .

وقول الشاعر :

مضى عصر الشباب كلمح برق وعصر الشيب بالأكدار شييا
وما أعددت قبل الموت زادا ليوم يجعل الولدان شييا
فكلمة شييا في البيت الأول فعل بمعنى تكدر ، وفي البيت الثاني وصف بمعنى
بياض الشعر .

وأمثال هذا النوع كثير كقول عبد الله بن طاهر :

وانسى للثغر المخوف لكاليء وللثغر يجري ظلُّمه لرشوف
فالمراد بالثغر الأول الثغرة التي يمكن للعدو أن يفاجئ منها .
والمراد بالثغر الثاني فم الحبيب وريقه الذي يرشقه .
قال الحاتمي « وهو أفضل تجنيس وقع لمحدث » (١) .

وقول أبي نواس :

عباس عباس إذا احتدم الوغى والفضل فضل والربيع ربيع
فالأولى منها أسماء ، والثانية منها أوصاف .
ومنه قول الجاحظ يعاتب صديقاً له :

(١) حسن التوسل ١٨٣ ، أنوار الربيع ١/١٤٨ .

(٢) المعلقة ١/٣٢٣ .

- « يُعَاتِبُ عَلَى حَرْفٍ ، وَيُعِيدُ الْمُدَّةَ عَلَى حَرْفٍ » .
- أي يعاتب على أتفه الأشياء ، ويعيد مودته بقدر يسير .
- وكقولهم : « زائر السلطان الجائر كزائر الليث الزائر » .
- فزائر الأولى معناها واضح ، والأخيرة بمعنى الزئير .
- ووجه الحسن في هذا النوع : حسن الأفادة مع أن الصورة صورة الأعادة .

٢ - الجناس المركب :

- ومن الجناس التام نوع يسمى جناس التركيب .
- وهو ما كان أحد لفظيه مركباً .

وهو على ثلاثة أنواع :

الجناس المتشابه : وهو ما اتفق ركناه لفظاً وخطاً .

كقول ابن معصوم :

قف طالباً فضل الآله وسائلا واجعل فواضله إليه وسائلا
 « وسائلا » التي في الشطرة الأولى من البيت مركبة من كلمتين ومعناها السؤال .
 « وسائلا » التي في الشطرة الثانية من البيت كلمة واحدة ومعناها الوسيلة .
 وهما متشابهتان لفظاً وخطاً .

ومنه قول شمسويه البصري :

ناظراه فيما جنى ناظره أو دعاني أمت بما أودعاني
 « أودعاني » تكررت في البيت ، ولكنها في الأولى مركبة من حرف العطف
 والفعل ، بينما أو في أودعاني الثانية من بنية الكلمة .

ومثل ذلك قول الشاعر :

طار قلبي يوم ساروا قسر قسا وسواء فاض دمعي أو رقا
 حار في سقمي من بعدهم كل من في الحى داوى أو رقى

بعدهم لا ظلّ وادي المنحني وكذا بانّ الجمي لا أوقسا
وقول الآخر :

رُبّ سفيه جليس سوءٍ مفتسر عرضنا بنابئة
يقطع فينا بكلّ سوءٍ وكل ما قاله بنا بئة

الجناس المفقود : وهو ما تشابه ركناه لفظاً لا خطأً . وسمي مفروقاً ، لاقتراق
الركنين في الخط .

كقولهم : « كنت أطمع في تجريبك ، ومطايا الجهل تجري بك » وكقول القمّي :

مات الكرامُ وانقضوا ومضوا ومات في أثرهم تلك الكرامات
وخلفوني في قوم ذوي سفهٍ لو ابصروا طيفَ ضيفٍ في الكرى ماتوا

« الكرامات » في البيت الأول و« الكرى ماتوا » في البيت الثاني متشابهتان في
اللفظ مختلفتان في الخط .

وقول الآخر :

لا خير في العلم إذا لم يكن حظُّ من المال أو الجاه لسي
والعلم أن لم أك ذا ثروة أنزلي منزلة الجاهل

الجناس المفقود : وهو ما كان أحد ركنيه مستقلاً ، والآخر مرفوعاً من كلمة أخرى .
أي مركباً من كلمة وبعض كلمة ، حتى يعتدل ركنا التجنيس ، كقولهم :
« يا مغرور أمسك ، وقس يومك بأمسك » .

وقول الهمداني : « إن لم يكن لنا حظ في درك درك ، فخلصنا من شركِ شرك » .

وكقول الشاعر :

تفرق قلبي في هواه فعنده فريقتي وعندي شعبة وفريق

إذا ظمئتُ نفسي أقول له أسقني وإن لم يكن ماءً لديك فريقُ
وقول الآخر :

بنيسابور ساداتُ كرام ترى أحلامهم أحلامَ عاد
إذا بدأوا بعرفِ تمُّوه وعادوا بعده أحلى معاد
ومنه قول الشاعر :

ضفَّتْ نعمتانِ عمَّتكِ وخصَّنا حديثُهما حتى القيامة يُنشرُ
وَجودُكِ والدينيا اليك قيسرةُ وَجودُكِ والمعروفُ في الناسِ يُذكرُ
ووجه حسن الجناس التام سواء كان مركباً أو غير مركب ، هو : حسن الإفادة
مع أن الصورة صورة الأعادة .

٣ - الجناس المحرف :

وهو ما اتفقت فيه الحروف بين الكلمتين ، إلا أن إحداهما تخالف الأخرى
في الهيئة ، أي في الحركة فقط ، أو في الحركة والسكون . فالأول كقوله تعالى :
(ولقد أرسلنا فيهم مُنذِرِينَ ، فانظر كيفَ كانَ عاقبةَ المُنذِرِينَ) الصافات
٧٢ ، ٧٣ وقول الرسول صلى الله عليه وسلم :
« اللهم كما حسنتَ خلقي فحسنِ خلقي » .

وقول معاذ رضي الله عنه : (الدين يهدم الدين) .
وقولهم : « لا تنال الغر إلا بركوب الغر » .
وكقولهم : « الصديق الصديق أول العقد وواسطة العقد » .
وقول الالهوازي : « أعياء الناس من أطال الخطبة وأساء الخطبة » .
ومثاله من الشعر قول المعري :

لغيري زكاة من جمال ، فإن تكن زكاة جمالٍ فاذكري ابن سبيل

وقول الشاعر :

قللت للاثمي أقصر فإني سأختار المقام على المقام

ومثال ما كان الاختلاف فيه في الحركة والسكون معاً قول الشاعر :

ظننت به الجميل فجبت أرضاً إليه كهمتي طويلاً وعرضاً
فلما جشته أقيمت شخصاً حمى عرضاً له وأباح عرضاً

ومن هذا النوع قولهم : البدعة شرك الشريك .

الجهول إما مفرط أو مفرط .

٤ - الجنس المصحف :

ويقال له تجنيس الخط أيضاً ، لتماثل الكلمتين في الحروف واختلافهما في التقط .

كقوله تعالى : (وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) الكهف ١٠٤ (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) الشعراء ٧٩ (قُلْ إِنِّي لَسَنُ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا) الجن ٢٢ وقوله صلى الله عليه وسلم :

(عليك بالأبكار ، فإنهن أشد حبا وأقل خيآ) أي خداعا .

وقوله لعلي كرم الله وجهه : (قصر من ثيابك فإنه أتقى وأنقى وأبقى) وقول علي فيما كتب به إلى معاوية :

« غررك عرك ، فصار قصار ذلك ذلك ، فاختشى فاحش فعلك ، فعلك بهذا نهذا » .

وقول بعض السلف :

« لو كنت تاجراً ما اخترت غير العطر ، إن فاتني ربحه ، لم يفتني ربحه » .
وقولهم : « أجهل الناس من كان للأخوان مذلاً ، وعلى السلطان مذلاً » .

وقول البستي : « إذا ما بقي ما قاتك ، فلا تأسف على ما فاتك » .

وقوله : « طوبى لمن عقله يغنيه عما لا يعنيه » .

وقول الباخريزي : « العذلُ على البذلِ فعلُ النذلِ » .

ومن ذلك : « فعلت لمجاورته إلى مجاورته ، ولا يزكو بالخيْفِ من يرغب في الخيْفِ » .

« ومن أحسن الاختيار أحسن الاختيار » .

ومن الشعر قول أبي فراس :

من بحر شعرك أغتفر ف وبفضل علمك أعترف

وقول البحري في مدح المعتز بالله :

ولم يكن المغتَر بالله إذ شئى ليعجز والمعتز بالله طالبه

وإنما لقب هذا النوع بالمصحف ؛ لأن من لا يفهم المعنى ، فإنه يصحف

أحدهما إلى الآخر ؛ لأجل تشابههما في وضع الخط كما ترى .

• - الجنس الناقص :

وإن اختلف اللفظان في عدد الأحرف فقط سمي ناقصاً . وقد تكون الزيادة

بحرف واحد سواء كانت في أول أو في الوسط أو في الآخر مثال ذلك قوله

تعالى :

(والتَّمَّتْ السَّاقُ بِالسَّاقِ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ) القيامة ٢٩ ، ٣٠ بزيادة

المميم في الأول ، ومن ذلك ما وقع في الحريريات :

يسخو بموجوده ، ويسمو عند جوده .

ومثال ذلك شعراً :

(١) الإتيان ٩١/١ .

لم يبق صافٍ ولا مُصافٍ ولا معيّن ولا مُعيّنٌ
فلم يختلف صافٍ ومصافٍ إلا بزيادة الميم في أوله .

ومن ذلك ما أنشده عبد القاهر الجرجاني :

وكم سبقتُ إلى عوارفٍ ثنائِي من تلك العوارفِ وارفُ
وكم غررٍ من برّه ولطائفٍ لشكري على تلك اللطائفِ طائفُ

ومثال الزيادة في الوسط : جَلِيّ جَهْدِي .

ومثال الزيادة في الآخر :

وقوله تعالى : (كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) النحل ٦٩ .

وقولهم : « فلان سالٍ من أحزانه ، سالمٌ من زمانه ، حامٍ لغرضه ، حاملٌ لغرضه » .

وكقولهم « فلان حامٍ حاملٌ لأعباء الأمور ، كافٍ كافلٌ بمصالح الجمهور »
ومن ذلك قول الشاعر :

أراني اليوم للأحبابِ شاكٍ	وقُدماً كنت للأحبابِ شاكرٍ
ومالي منهم أصبحتُ بساكٍ	أباكرُ بالمدامعِ كلُّ باكرٍ
أذاقوني عنادا طعم صابٍ	وقالوا كن على الهجران صابِرٍ
وها قلبي إلى الأحبابِ صاغٍ	يميل إلى رضاهم وهو صاغِرٍ
أحسن إلى لقاهم كل عامٍ	وأرجو وصلهم في شعب عامِرٍ

ووجه الحسن في هذا النوع الذي تأتي فيه الزيادة في الآخر ، أنك تتوهم قبل أن يرد عليك الحرف الأخير أنك تكرر الكلمة الأولى لمجرد التوكيد ، فإذا أتيت على آخر الكلمة انصرف عنك هذا الوهم وحصلت لك الفائدة بعد اليأس منها .

وقد تكون الزيادة بأكثر من حرف واحد ، كقوله تعالى :

(وانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ) طه ٩٧

(وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) القصص ٤٥
(مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ) البقرة ٦٢
(إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ) العاديات ١١
(مُتَدَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ) النساء ١٤٣ .

٦ - الجناس المضارع والجناس اللاحق^(١) :

أن تختلف الكلمتان المتجانسان في حرف واحد .

فإن كان الحرفان المختلفان متقاربين في المخرج سمي مضارعاً .

وإن كان الحرفان المختلفان غير متقاربين في المخرج سمي لاحقاً .

والمضارعة المشابهة ؛ لأن الكلمة تشبه أختها في الصورة مثال المضارع : قوله
صلى الله عليه وسلم :

(الخَيْلُ معقودٌ بنواصيها الخَيْرُ : الأجرُ والمغنمُ إلى يومِ القيامةِ) فاللام والراء متقاربان
في المخرج .

وفي الحريريات : « لهم في السير جرى السيل ، وإلى الخير جرى الخيل » .
ومنه قول الحطيئة :

مطاعينُ في الهيجاَ مطاعيمُ في الدجى بنى لهم آبأؤهم وبنى الجد
وقول البحري :

ظَلَلْتُ أَرْجِمُ فِيكَ الظُّنُونُ أَحَاجِمُهُ أَنْتَ أَمْ حَاجِبُهُ ؟
ومثال الجناس اللاحق قوله تعالى :

(وَيُنَلِّ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةً) الهمزة ١

(١) الأتقان ٩١/١ ، الطراز ٣٦٧/٢ ، الأنوار ١٤٠/١ ، حسن التوسل ١٩٤ .

(وَأَنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لِشَهِيدٍ وَأَنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) العاديات ٧ ، ٨
 (ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ) غافر ٧٥
 (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ) النساء ٨٣
 ومن ذلك قولهم : « المكارم بالمكاره ، والتواضع شرك الشرف » .
 وفي الحريريات : لا أعطى زمامي لمن يخفر ذمامي ، ولا أغرس الأيدي في
 أرض الأعداي .

وقول أبي فراس :

غنى النفس لمن يعقل خير من غنى المال
 وفضل الناس في الأنفس ليس الفضل في الحال
 وقول ابن معصوم :

قد طلع البدر في كواكبه كالملك يختال في مواكبه

٧ - جناس القلب :

ويسمى جناس العكس أيضاً .
 وهو ما تساوت حروف ركنيه عدداً ، واختلفت ترتيباً .
 كقوله تعالى حكاية عن هارون :
 (إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) طه ٩٤ .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

(اللَّهُمَّ اسْرُ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا) ، (يقال لصاحب القرآن يوم القيامة : اقرأ
 وارقاً) .

وقول عبد الله بن رواحة في مدح الرسول :

تحمله الناقة الأدماء معتجراً بالبُرْدِ كالبدرِ جلى نوره الظلماً

وقول العباس بن الأحنف :

حُسامك فيه للأحباب فتسح ورمحك منه للأعداء حتفُ

وقول أبي تمام :

بيض الصفائح لاسود الصفائح في متونهن جلاء الشك والرييب

وقول الآخر :

قلت لـ ما لاح لي منـ لها شعاعٌ وبريسق

أشقيـق أم عقيـق أم حريـق أم رحيـق

وقول الشاعر :

لاح أنوار النـدى من كفه في كل حال

وقول البحري :

شواجر أرمـاح تُقطـع بينهم شواجر أرحام ملوم قطوعها

وليس بالضرورة في الجناس المقلوب أن تقلب جميع حروفه ؛ بل اكتفى علماء البديع بقلب حرف واحد أو حرفين من أحد الركنين .

وسواء كان القلب في جميع الحروف ، مثل : لاح وحال ، وفتح وحتف ، وقرأ وارقأ ، أو كان في بعض الحروف ، مثل : حريق ورحيق ، وأرمـاح وأرحام وصفائح وصفائح سمي مقلوباً ، وأن بعض علماء البديع يخصصون القلب في جميع الحروف باسم العكس^(١) .

وإذا ولي أحد المتجانسين الآخر سمي مكرراً :

كقوله تعالى : (وجئتُك من سبأ بنياً يقين) النمل ٢٢

وما جاء في الخبر : « المؤمنون هينون لينون » .

(١) الأنوار ٢٠٥/١ .

وقول البستي :

أبا العباس لا تحبب لشيني بأني من حلى الأشعار عاري
فلى طبع كسلسال معيّن زلال من ذري الأحجار جاري
إذا ما أكبت الأذوار زناداً فلي زناد على الأذوار وار

• • •

ويلحق بالجناس شيطان :

أحدهما أن يكون اللفظان لهما أصل واحد في اللغة ، وهذا يسمى تجنيس الاشتقاق ،
كقوله تعالى :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ) الروم ٤٣ .

وقوله تعالى : (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) البقرة ٢٢٦

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ذو الوجهين لا يكون وجيهاً عند الله » .

وكقول أبي تمام :

عممت الخلق بالنعماء حتى غدا الثقلان منها مثقلين
وكقول الشاعر :

ان تسر الدنيا اغارت ونجوم السعد غارت
فصروف الدهر شتسى كلما جارت أجات

والثاني ما يشبه الاشتقاق وليس منه ، ويسمى تجنيس المشابهة .

كقوله تعالى : (لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ) المائدة ٣١ فالأول من الرؤية

والثاني من المواراة .

وقوله تعالى : (وَإِنْ يُرِ دُكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) يوسف ١٠٧

فالأول من الإرادة والثاني من الرد .

وقول البحرى :

وإذا ما ريساح جودك هبت صار قسول العذال فيها هباءً

ومن العلماء^(١) من جعل للتجنيس أصليين فقط وهما :
جناس المزاوجة و جناس المناسبة ومنها لفظي ومنها معنوي .

والجناس اللفظي منه جناس المزاوجة اللفظي ، و جناس المناسبة اللفظي . فجناس
المزاوجة اللفظي كقوله تعالى :
(وَجَاءُ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) الشورى ٤٠ .

فالسيدة الثانية ليست سيئة وإنما هي بمعنى العقوبة ، وسميت باسمها لقصد
المزاوجة . ومثله قوله تعالى :
(فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ) البقرة ١٩٤ سمي
جزء الاعتداء اعتداء ؛ ليكون في نظم الكلام مزاوجة .

و جناس المناسبة اللفظي يدخل فيه كل ما ذكرناه من أنواع الجناس السابقة ،
أما الجناس المعنوي فمثل قوله تعالى :

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) مع قوله تعالى : (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)
الكَافِرُونَ ١ ، ٣ فَإِنَّ التَّقْدِيرَ : يَا أَيُّهَا الْمَكْذِبُونَ أَنْتُمْ الْمَكْذِبُونَ .
وكقول الشاعر :

أراني الله جسمك في خفصاء وعينك مثل بشار بسن بُرد
أي عمياء ؛ لأن بشاراً كان أعمى ، فهو جناس بين عينك وعمياء .

وبيت المعري :
نهارهم ابن يعقرب في ضحاه و ليلة جارهم بنت المحلق
وبنت المحلق أسمها ليلي ، أي : ليلة جارهم مظلمة ، يقال : ليلة ليلاء ليلي ،
أي : طويلة شديدة الظلام .

فهو جناس معنوي بين « ليلة و ليلي » وابن يعقرب هو الأسود .

(١) بدع القرآن ٢٧ ، التحرير ١٠٢ ، النكت ٣٩ .

حكى عن ابن جنى أن الأصمعي^(١) كان يدفع قول العامة إذا قالوا : هذا مجناس ، ويقول : ليس بعربي خالص ، وقال ابن رشيق ، هو من أنواع الفراغ وقلة الفائدة ومما لا يشك في تكلفه .

رد الأعجاز على الصدور :

أول ما ينبغي لك أن تعلمه أنك إذا قدمت ألفاظاً تقتضي جواباً ، فالمرضى أن تأتي بتلك الألفاظ في الجواب ، ولا تنتقل عنها إلى غيرها مما هو في معناها ، كقول الله عز وجل (وجزاء سيئة سيئة مثلها) الشورى ٤٠

وهذا يدل على أن لرد الأعجاز على الصدور موقفاً جليلاً من البلاغة وله في المنظوم خاصة محلاً خطيراً^(٢) .

ويأتي هذا النوع في النثر كما يأتي في الشعر :

أما في النثر : أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بالمتجانسين في أول الفقرة والآخر في آخرها .
والمراد بالمكررين : المتفقين في اللفظ والمعنى .
والمتجانسين : المتشابهين في اللفظ دون المعنى .
والملحقين : اللذين يجمعهما الاشتقاق أو شبه الاشتقاق .
فهذه أربعة أقسام : والأمثلة على الترتيب كما يلي :
الأول قوله تعالى : (وتخشى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تَخْشَاهُ) الأحزاب ٢٧ .
الثاني : سائلُ اللّٰثِمِ يرجع ودمعه سائل .
الثالث : (استغفروا ربكمَ أنه كان غفّاراً) نوح ١٠ .
الرابع : (قَا إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ) الشعراء ١٦٨ .

وهذه بعض الآيات القرآنية التي يمكنك أن تردّها إلى أقسامها :
قال تعالى : (والملائكةُ يشهدون وكفى بالله شهيداً) النساء ١٦٦

(١) خزانة الأدب ٢٠ ، ٢١ .

(٢) الصناعين ٣٨٥ .

قال تعالى : (وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) آل عمران ٨ .
قال تعالى : (وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) الانعام ١٠ .
قال تعالى : (أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَاللَّخِزَّةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ
تَفْضِيلًا) الأسراء ٢١ .

وفي النظم على أربعة أقسام وهي :

أن يقع أحد اللفظين في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول ، أو حشوه ،
أو عجزه ، أو صدر المصراع الثاني ، فهذه أربعة أقسام ، وعلى كل تقدير فاللفظان
إما مكرران ، أو متجانسان ، أو ملحقان يجمعهما الاشتقاق ، أو ما يشابه
الاشتقاق ، فهذه أربعة أقسام وبذلك تصير الأقسام ستة عشر :

ونبدأ باللفظين المكررين :

قال ابن جابر الأندلسي :

جمال هذا الغزال سحر يا حَبْدًا ذَاكَ الْجَمَالَ
كَمَالَهُ لَا يَخَافُ نَقْصًا دَامَ لَهُ الْحُسْنُ وَالْكَمَالُ

وقال عمرو بن معد يكرب :

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعِهِ وَجَاوِزِهِ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

وقال أبو فراس :

هُوَ الْمَوْتُ فَاخْتَرِ مَا حَلَالَكَ ذَكَرَهُ فَلَمْ يَمِتِ الْإِنْسَانُ مَا حَيَّيَ الذُّكْرُ

وقال البحتري :

عَلَى الْحَيِّ سَرْنَا عَنْهُمْ وَأَقَامُوا ، سَلَامٌ ، وَهَلْ يَدْنِي الْبَعِيدُ سَلَامٌ وَأَمْثَلَةُ الْلَفْظَيْنِ
المتجانسين :

(١) أنوار الربيع ٩٤/٣ .

كقول السرى الرفاء :

يَسَارُ مِنْ سَجِيَّتِهَا النَّايَا وَيُمْنَى مِنْ عَطِيَّتِهَا الْيَسَارُ

وقول الثعالبي :

وَإِذَا الْبِلَابُ أَفْصَحَتْ بُلْغَاتِهَا فَأَنْفِ الْبِلَابِ بِاحْتِسَاءِ بِلَابِ

فالأول جمع بلبيل ، والثاني جمع بلبلة وهي الهم ، والثالث جمع بلبلة الأبريق
وقول ابن جابر الأندلسي :

زرت الديرار عن الأحبة سائلاً ورجعت ذا أسف ودمع سائلاً

وقول أبي الفضل الميكالي :

إِن لِي فِي الْهَوَى لِسَانًا كَتُومًا وَقَوَادًا يُخْفِي حَرِيقَ جَوَاهِ
غَيْرَ أَنِّي أَخَافُ دَمْعِي عَلَيْهِ سَتْرَاهُ يُبْدِي السَّيِّئَ سَتْرَاهُ

وأمثلة اللفظين اللذين جمعهما الاشتقاق :

كقول البحرني :

يرينسي الشيء تأتي به وَأَكْبَرُ قَدْرِكَ أَنْ أَسْتَرِيَا

وقول أبي فراس :

وما إن شبت من كبر ولكن لقيت من الأحبة ما أشابا

وقول البحرني :

وإني لأبأء على كل لائم عليك وعصاه لكل ملام

وقول أبي فراس :

ولكنني في ذا الزمان وأهليه غريب ، وأفعالي لديه غرائب

وأمثلة اللفظين اللذين يجمعهما ما يشبه الاشتقاق :

كقول الحريري :

ولاح يلحى على جرى العنان إلى ملهى فسحقا له من لائح لاح
فالأول من يلوح ، والأخير أسم فاعل من لحاه .
وكقول الشاعر :

لعمري لقد كان الثريا مكانه تراه فأضحى الآن مشواه في الثرى
فالثريا واوي من الثروة ، والثري يأتي .

وكقول الحريري :

ومضطَّحٌ بتلخيص المعاني ومُطَّلِحٌ إلى تخلص عاني
فالأول من عنى يعني ، والثاني من عنا يعنو .

وكقول التهامي :

طيف ألمّ فزاد في آلامي ألماً ولم أعهده ذا إلمام
فالألف في ألمّ أصله ، وفي الألمام زائدة .

وأفضل هذه الأنواع إذا كان اللفظان متجانسين ، وأحدهما في آخر البيت
والآخر في صدر المصراع الأول .

السجع :

هذا اللون من ألوان البديع كثير الدوران عظيم الاستعمال في ألسنة البلغاء ،
وقد عوّل عليه علماء البلاغة ، فقد وجدوا كتاب الله وسنة نبيه وكلام علي رضي
الله عنه مملوءاً به ، ولو كان مستكرها لما ورد في الكلام البالغ الفصاحة ، ولأجل
كثرت في السنة الفصحاء لا يكاد بليغ يرتجل خطبة أو يحزر موعظة إلا كان أكثر
كلامه مبنياً على السجع ، والرسول عليه السلام لم ينكر السجع على إطلاقه ، وإنما
أنكر منه سجع الكهان فحسب ، لأنهم يريدون به إبطال حق فتشددت ألسنتهم

(١) الطراز ١٨/٣ .

به ؛ للتأثير به على السامع وما يؤدي إليه من فورة انفعالية .

والسجع هو اتفاق الفواصل في الحرف ، أو في الوزن ، أو فيهما معاً . فإن اتفاقاً في الحرف دون الوزن فهو المطرف كقوله تعالى :

(مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً) نوح ١٣ ، ١٤ « فوقارا وأطواراً » اتفاقاً في الحرف الأخير دون الوزن .

وإن اتفاقاً في الوزن دون الحرف سمي المتوازن ، كقوله تعالى :

(وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزُرِّيٌّ مَبْثُوثَةٌ) العاشية ١٥ ، ١٦ « فمصفوفة ومبثوثة » اتفاقاً في الوزن دون الحرف الأخير وهو ما قبل التاء .

وإن اتفاقاً في الوزن والحرف معاً سمي المتوازي كقوله تعالى :

(فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ) العاشية ١٣ .

فإن راعي الوزن في جميع الألفاظ أو أكثرها وقابل الكلمة بما يعادلها في الوزن سمي المرصع ، من قولهم : تاج مرصع إذا كان فيه حلية ، وذلك كقوله تعالى :

(وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ، وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) الصافات ١١٧ ، ١١٨ .

هذا الاستواء في أوزان الفواصل يجعل للكلام رونقاً وطلاوة ؛ لما في ذلك من الاعتدال المطلوب طبعاً .

والسجع لا يحسن كل الحسن إلا إذا توافرت فيه أربعة شروط :

أن تكون الألفاظ حلوة المذاق يلذ سماعها على الأذن .

أن تكون الألفاظ تابعة لمعناها ، ولا يكون المعنى تابعاً لها حتى تسلم من التكلف .

أن تكون إحدى السجعتين غير متنافرة مع أختها .

أن تكون إحدى السجعتين غير متنافرة مع أختها .

أن تكون كل واحدة من السجعتين دالة على معنى مغاير لمعنى الأخرى ،
وإلا كانت تكرار لا فائدة فيه ، كقول الصابي :

« يسافر رأيه وهو لا يبرح ، ويسير وهو ثاو لا يترح » يسافر ويسير بمعنى واحد ،
ويبرح ويترح بمعنى واحد .

والسجع قد يكون قصيراً وقد يكون طويلاً . والقصير هو أصعب أنواع السجع
مسلكاً وأطيبها على السمع ، وأخفها على القلب ، لأن الألفاظ إذا كانت قليلة
فهي أحسن وأرق ؛ لقرب قواصلها والتحام أطرافها . ومن ذلك قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبِّكَ فَكْبِيرٌ ، وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ،
وَلَا تَمُنُّ بِتَسْتَكْبِرْ ، وَرَبِّكَ فَاصْبِرْ) أول المدثر .

وقوله تعالى :

(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ، فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا)
أول المرسلات .

ومن السجع الطويل قوله تعالى :

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّةٍ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ)
هود ٩ ، ١٠ وقوله تعالى :

(إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا قَلْبًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ
وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيِّمَاتِ فِي أَعْيُنِكُمْ
قَلِيلًا وَيَقُلُّكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) الأنفال
٤٣ ، ٤٤ .

ومن السجع المتوسط قوله تعالى :

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى إِلَى قَوْلِهِ : إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى) الأعلى ١ - ٧ .

وقد تكون أعداد ألفاظ الفقرة الأولى مساوية للثانية ، أو أقل من الثانية ،
أو زائدة على الثانية ، فهذه أضرب ثلاثة :

وأحسن السجع ما كانت فيه الفقرتان متساويتان ، كقوله تعالى :
(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) الضحى ٩ ، ١٠

وقوله تعالى : (والعاديات صَبَحًا ، فالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ، فَأَثَرْنَ
به نَقْمًا ، فوسَطْنَ به جَمْعًا) العاديات ١ - ٥ .

والضرب الثاني : وهو ما كانت فيه الثانية أطول من الأولى بغاية قريبة ، فإن
طالت فهو غير محمود .

ويرجع قبح طول الثانية على الأولى إذا كان فاحشاً - إلى شيء نحسه بأذاننا
وندركه بأذواقنا ؛ فإن السامع ألف الانتهاء إلى غاية في السجعة الأولى ، فإذا زيد
عليها اختلت مقاييسه عنده ، وثقلت عليه هذه الزيادة التي لم يتوقعها في السجعة
الثانية ، فيفتر حماسه لها ، وتقل نشوته بها ؛ لأنه أكنفى من الثانية بمقدار الأولى ،
وظن أنه ظفر بمقصوده من فهم المراد ، وفي الحقيقة لم يظفر به بعد . أما الطول
غير الفاحش فلا بأس به ، وقد ورد في القرآن (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ، لَقَدْ
جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا)
فاطر ٨٨ - ٩٠ فواضح أن الثانية أطول من الأولى .

الضرب الثالث : وهو ما كانت الفقرة الثانية أقصر من الأولى ، عكس
الضرب الثاني ، وهذا معيب عند أهل البديع .

والسر في ذلك أن الفقرة الأولى إذا طالت ثم جاءت الثانية أقصر منها كانت
كالشيء المنقطع المبتور ، وكان السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها ،
ويتبدد ما كان يتوقعه من المماثلة بينهما .

وهذا الضرب أبعدها ، والضرب الأول أعد لها ، والثاني أوسطها في العدل ،
ولذلك لا يكاد يوجد الضرب الثالث في القرآن الكريم^(١) كما زعموا .

وهذا غير صحيح فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى :

(١) الطراز ٢٧/٣ .

و(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّيلٍ)
الفيل ١ ، ٢ .

وينبغي أن نقول عن كلمات القرآن المتوافقة إنها فواصل ؛ تأديباً ، وقد سماها
الله تعالى بذلك حيث قال : (كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ) فصلت ٣
فليس لنا أن نتجاوز ذلك ، كما لا يجوز لنا استعمال الفاصلة في الشعر ؛ لأنها
صفة لكتاب الله تعالى ، فلا نتعداه .

ولا يقال فيها أسجاع حيث لا يجوز وصفها بصفة لم يرد الأذن بها ، ولا يجوز
بالإجماع تسميتها قوافي ؛ لأن الله سلب عن القرآن الكريم صفة الشعر والقافية
بالشعر وجزء منه .

ومن العلماء من خص السجع بالثر ، والصحيح عدم اختصاصه به ، بل
يجري في النظم أيضاً .

ومن السجع على هذا القول ما يسمى بالتشطير :

وهو أن يقسم الشاعر البيت شطرين ، ثم يصرِّع كل شطر من الشطرين ، لكنه
يأتي بكل شطر مخالفاً لقافية الآخر حتى يتميز من أخيه^(١) كقول مسلم بن
الوليد :

مُوفٍ عَلَى مَهَجٍ ، فِي يَوْمِ ذِي رَهَجٍ كَأَنَّهُ أَجْمَلٌ ، يَسْعَى إِلَى أَمَلٍ
وكقول أبي تمام :

تَدِيرُ مَعْتَصِمٍ ، بِاللَّهِ مَنْتَقِمٍ اللَّهُ مَرْتُوبٍ ، فِي اللَّهِ مَرْتَقِبٍ
وقول البوصيري :

كَالزَّهْرِ فِي تَرْفٍ ، وَالْبَدْرِ فِي شَرْفٍ وَالْبَحْرِ فِي كَرَمٍ ، وَالذَّهْرِ فِي هَمَمٍ
وقول ابن جابر الأندلسي :

(١) تحرير التحبير ٣٠٨ .

كالغيث في كرم ، والليث في حرم والبدر في أفق ، والزهر في خلق
ومنه ما يسمى بالتصريح :

وهو استواء آخر جزء في الصدر وآخر جزء في المعجز في الوزن والأعراب والتقفية ،
ولا يعتبر بعد ذلك أمر آخر ، وهو في الأشعار كثير ، لا سيما في أول القصائد ،
وكثير ما يأتي في أثناء قصائد القدماء كقول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الأصباح منك بأمثل
فإن أول القصيدة :

فإن نبتك من ذكرى حبيب ومنزل يسقط اللوى بين الدخول وحومل
وكقول أوس بن حجر :

إني أرتق ولم تارق معي صاحبي لمستكف بعيد النوم نواح
من قصيدة أولها :

ودع ليس وداع الصارم السلاحي قد فنكت في فساد بعد اصلاح

* * *

وهكذا نرى أن السجع سواء كان نثراً أو شعراً له نظام متبع عند علماء البديع
لا يصح العدول عنه أو الانحراف منه ، فهو لا يأتي اعتباطاً بلا تبصر ، وحيثما
أردت السجع جئت به دون تفكير ؛ بل له سنن مرسوم ، وطريق محدود يقول
الباقلاني^(١) : إن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلقت طرقة ، كان قبيحاً من
الكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ ، وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم
أوقع الخلل في كلامه ، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة ، كما أن الشاعر -
إذا خرج عن الوزن المعهود - كان مخطئاً ، وكان شعره مردولاً ، وربما أخرجه
عن كونه شعراً ..

(١) إعجاز القرآن ، ٥٩ ، ٦٤ .

ثم يقول : ويلمّون كل سجع خرج عن اعتدال الأجزاء ، فكان بعض مصاريحه من كلمتين وبعضها يبلغ كلمات ، ولا يرون في ذلك فصاحة ؛ بل يرونه عجزاً .

لزوم ما لا يلزم :

ومن السجع نوع يسمى الاعنات أو لزوم ما لا يلزم وهو : أن يلتزم النائر في نثره ، أو الشاعر في شعره قبل روى البيت من الشعر أو الفاصلة من النثر حرفاً فصاعداً على قدر قوته وحسب طاقته .

فالأديب يلتزم ما لا يلزم ؛ لأنه ليس من الأحرف التي يجب المحافظه عليها في الشعر أو النثر ، كما أن السجع يتم بدونه .

ويحمد من هذا النوع ما ليس فيه كلفة ؛ لأن التكلف يذهب بروق الصنعة ، ويضعف هشاشة النفس له ، وحينئذ يكون تركه أجود من ذكره .

وقد جاء من ذلك في القرآن الكريم مواضع رائعة الحسن ، كقوله تعالى :

(وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ) الطور ١ ، ٢ .

(فَلَا أَسْمُ بِالْخُنُوسِ ، الْجَوَارِ الْكُنُوسِ) التكوير ١٥ ، ١٦ .

(وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ، وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ) الانشقاق ١٧ ، ١٨ .

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ) القلم ٢ ، ٣ .

(فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ، وَإِخْوَانُهُمْ يَمْلُونَهُمْ فِي الْغَيْبِ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ) الاعراف ٢٠١ ، ٢٠٢ .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« اللهم بك أحاول ، وبك أصاول » .

« شر ما في المرء شح هالغ ، أو جبن خالغ » .

« الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

لا يكن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً .

وقل استعمال هذا النوع في أشعار المتقدمين ، أما المتأخرون فقد أكثروا منه وتعمدوه ، حتى عمل منه أبو العلاء المعري ديواناً كبيراً سماه اللزوميات ، وكان ابن الرومي من أولع الناس به .

فمن ذلك قول المعري :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهاً وحق لسكان البيضة ان يَكُوا
يحطمنا صرف الزمان كأننا زجاج ، ولكن لا يعادله سبك
وكقول الشاعر :

سلم على قطن إن كنت نازله سلام من كان يهوى مرة قطننا
أحبه والذي أرمى قواعده حباً إذا ظهرت آياته بطننا
ما من غريب وإن أبدى تجلده إلا تذكر عند الغربة الوطننا
وقول ابن الرومي :

لما تُؤذِنُ الدنيا به من صرورها يكون بكاءً الطفل ساعة يولد
والأفما يكيه فيها ، وإنها لا وسع مما كان فيه وأزغد
إذا أبصر الدنيا استهل ، كأنه بما سيلافي من أذاها يهدد
قال الشيخ عبد القاهر في أسرار البلاغة (١) :

وأصل الحسن في جميع المحسنات اللفظية أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني ، فإن المعاني إذا أرسلت على سجيها ، وتركت وما تريد ، طلبت لأنفسها الألفاظ ، ولم تكتس إلا ما يليق بها ، فإن كان خلاف ذلك ، كان كما قال أبو الطيب :

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها فالحسن عنك مغيب

وفيه نظر - هكذا يقول صاحب الأشارات والتنبيهات في نهاية الكلام عن

(١) أسرار البلاغة ١٣ وانظر الأشارات والتنبيهات في علم البلاغة ص ٣٠٤ .

البديع - ؛ لأن وجه الحسن غير وجه تحسينه للمعاني ، ومطلوبه هو الأول ،
وما ذكره هو وجه التحسين ، فإن الشيء إذا كان حسناً ، يجب أن يكون جميع
ما يتعلق به أيضاً حسناً ، وإلا لكان كالحسن الشائع ، والحق أن يقول :

وجه حسن ما تقدم من المحسنات اللفظية ، هو وجه حسن الشعر ، وهو
التناسب ، فإن الجنس ميّال إلى الجنس ، والطبع ميّال إلى إيقاع المناسبه بين الأشياء ،
ونقاره عن المتنافرات ، فإن التناسب من الاعتدال ، والنفس الكاملة مفطورة على
محبه .

السَّرِقَاتِ الشِّعْرِيَّة

السَّرَقَاتُ الشِّعْرِيَّةُ

يقول القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٦٦ هـ) : (١)

والسرق داء قديم ، وعيب عتيق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ، ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه ، وكان أكثره ظاهراً ، وقد يكون غامضاً ليس فيه غير اختلاف الألفاظ .

ولكن المحدثين قد عملوا على إخفاء السرقة بالنقل والقلب ، وتغيير المنهاج والترتيب ، أو جبر ما فيه من نقص بالزيادة والتأكيد والتعريض في حال ، والتصريح في أخرى . فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور ما يجعله مخترعاً لهذا المعنى ومبتدعه .

والكشف عن السرقات والمقارنة بين معاني الأبيات الشعرية ونظمها حتى يمكن الحكم على الشاعر بأنه مبتدع أو متبع ليس في متناول الجميع ، وليس من شأن من لا يعرف من السرقة إلا اسمها ، ووقف عند قشورها فيصعب عليه أن يلم بالواضح منها فضلاً عن الغامض ، وبالسطح قبل الوصول إلى الأغوار .

فباب السرقة (٢) لا ينهض به إلا الناقد البصير ، والعالم المبرز ، وليس كل من تعرض له أدركه ، ولا كل من أدركه استوفاه واستكمله . ولست تعد جهابذة الكلام ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه ، وتحيط علماً برتبه ومنزله ، فتفصل بين السرق والغصيب ، وبين الاغارة والاختلاس ، وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرق فيه ، والمبتذل الذي ليس أحد أول به ، وبين المختص

(١) الوساطة بين المتنبئ وخصومه ٢١٤ ط عيسى الحلبي .

(٢) الوساطة بين المتنبئ وخصومه ١٨٣ .

الذي حازه المبتدئ فملكه ، فصار المعتدي مختلساً سارقاً ، والمشارك له محتدياً
تابعاً ، وتعرف اللفظ الذي يجوز أن يقال فيه : أخذ ونقل ، والكلمة التي يصح
أن يقال فيها : هي لفلان دون فلان .

فهناك أمور متفرقة في النفوس متصورة للعقول ، يشترك فيها الفصيح والأعجم
والشاعر والمفحم ، كتشبيه الحسن بالشمس والبدر ، والجواد بالغيث والبحر ،
والبليد بالحمار ، والشجاع الماضي بالسيف والنار -- فما كان شأنه كذلك ، وكانت
السرقة عنه منتزعة ، والاتباع فيه ممتنع .

الا أن مثل هذه الأمور المتناقلة المتداولة قد يصح فيها الاختراع والابتداع
ويتبارى فيها الشعراء والكتاب فلا يعد من السرقة ولا يحسب من الأخذ ، وانما
يكون الأصل فيه لمن انفرد به ، وأوله للذي سبق إليه : كوصف البرق بخطف
الأبصار ، وسرعة الملح ، وأنه كالقبيس من النار ، وكالحريق المتضرم ، وكمصباح
الراهب ، وكتشبيه الفتاة بالغزال في جيدها وعينيها أو في حسنها وصفائها .

فإذا تدبرت هذه الأمثلة وما شاكلها ، وجدت نفسك أمام صنفين من الكلام .
صنف مشترك عام الشركة لا يتفرد به أحد ، كحسن الشمس والقمر ، ومضاء
السيف وبلادة الحمار وجود الغيث ونحو ذلك مما هو مركب في النفس تركيب
الخلقة .

وصنف سبق المتقدم إليه ففاز ، ثم تداوله الناس بعد ذلك فكثر واستعمل
على السنة الشعراء فحمى نفسه من السرقة ، وأزال عن صاحبه مذمة الأخذ ، كما
يشاهد في تمثيل الفتاة بالغزال في جيدها وعينيها ، والمهابة في حسنها وصفائها ، أو
البرق بالمصباح .

وقد يكون في هذا الباب ما تتسع له أمة وتضيق عنه أخرى ، ويسبق إليه قوم
دون قوم ، لعادة أو مشاهدة أو مراسم ، كتشبيه العرب الفتاة ببيضة النعامة ،
ولعل في الأمم من لم يرها ، وحمرة الخلود بالورد والتفاح ، وكثير من العرب
من لم يعرفهما .

هذه المعاني المتداولة التي يشترك فيها الناس قد يفضل أحدهم الآخر بانفراده :

بلفظة عذبة ، أو ترتيب حسن ، أو زيادة يهتدي إليها دون غيره ، فيصح في يديه
المعنى المشترك المبتدل شيئاً آخر يتصف بالابتداع والاختراع .

فتشبه الخدود بالورد مثلاً أو تشبيه الورد بالخدود قد أكثر منه الشعراء ،
وجرى على ألسنة العامة والخاصة ولا يمكن ادعاء السرقة فيه الا بتناول زيادة تضم
إليه ، أو معنى يشفع به كقول أبي سعيد المخزومي :

والوردُ فيه كأنما أوراقه .. نُزعت ورْدَ مكانهن خدودُ
فهو لم يزد على مجرد تشبيه الورد بالخدود وهو المعنى الجاري على ألسنة الناس ،
ولكن عندما كساه هذا اللفظ الرقيق ، أحسست في نفسك عنده هزة ، تعلم بها
أنه انفراد بفضيلة لم ينازع فيها .

فالشاعر حين شبه الورد بالخدود لم يكن في ذلك قدح في شاعريته ، ولا
اتهاماً له بالسرقة ، وإنما هو أحق بالترفضيل وأولي المدح ، حين أخرج هذا المعنى
المبتدل في صورة حسنة ونظم أخذ بما أضاف إليه من لفظ رقيق .

فالمعاني المشتركة - اذن - لا تدخل في باب السرقات ، إلا إذا أضاف الشاعر
إليها شيئاً جديداً فينسب الفضل إليه عندئذ لما له من فضيلة سبق بكسوة المعنى
ثوباً قشياً ورونقاً عذياً .

والمعاني المشتركة التي لا تدخل في باب السرقات كثيرة في الشعر العربي .

كقول جرير : -

كأن رؤوس القوم فوق رماحنا .. غداة الوغي تيجانُ كسرى وقيصرا

وقريب منه قول أبي تمام : -

أبدلت أرؤوسهم يوم الكريهة من .. قنا الظهورِ قنا الخطيِّ مُدعما

فهذا ليس من باب السرقات ، فليس فيه أكثر من رفع الرؤوس على القنا ، وهذا
معنى مشترك لا يسرق .

ومن ذلك التوسل بالشباب وجعله شفيحاً لدى الغايات ، فهو معنى مبتدل

لا يدخل في باب السرقات . كقول الوراق :

كفالك بالشيب ذنباً عند غائبة .. وبالشباب شفيحاً أيها الرجل
ومثله قول النمرى :

وإذا توسل بالشباب أخو الهوى .. ألفاه نعم وسيلةً الموسل
ومن المعاني المشتركة التي لا تؤخذ على الشعراء ولا تعد من المثالب .
قول علي بن جبلة :

يأسو الذي يجرح أعداؤه .. وما لما يجرحه آس
وقول أشجع :

فما يرفعُ الناسُ من حطّسه .. ولا يضعُ الناسُ من يرفعُ
وقول أبي تمام :

فإن أفسدت شيئاً فليس بصالحٍ .. وإن أصلحتَ شيئاً فليس بفسادٍ
وقول الطيب :

فلا ترتقِ الأيام ما أنت فاتقُ .. ولا تفتقِ الأيام ما أنت راتقُ

فالمنعنى مشترك بين هذه الأبيات الأربعة ، وكلها تدل على سطوة الممدوح وقوة
شكيمته ، فكلمته نافذة ، وحكمه قاطع ، وليس في مقدور الأيام ولا في مقدور
الناس أن يغيروا مما يراه شيئاً ، سواء في إحسانه أو في إساءته ، ومع هذا الاشتراك
في المعنى لا يعد أحدهم آخداً من الآخر ، ولا يدخل في باب السرقات ، وإن
كان الفضل للمتقدم والسبق له .

وما يجري هذا المجرى .

ما قاله ذو الأصبع العدواني :

أطاف بنارِيبُ الزمانِ فداسنا .. له طائفٌ بالصالحين بصيرُ

والبحري :

ألم تر للنواب كيف تَمُور .. إلى أهل النوازل والفضُولِ

والمتبي :

أفاضل الناس أغراضٌ لهذا الزمن .. يخلو من الهم أنحلاهم من الفِطْنِ

وهو ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أعظم الناس بلاء الأمل فالأمل » .

ومن المعاني المشتركة بين المتقدمين والمتأخرين حتى بلغت حد الابتذال :

فراق الرجل وطنه وأصدقائه إذا لم يجد حسن المثوبة ، أو شعر بالضميم .

يقول البحري :

وإذا ما تنكّرت لي بلادٌ .. أو صديقٌ فإني بالخيارِ

وقال ابن معذل فأحسن وأوجز ، لكنه اقتصر على البلد :

إذا وطنٌ رابني .. فكلُّ بلادٍ وطنٌ

وقال أبو الطيب :

إذا صديقٌ نكّرتُ جانبَهُ .. لم تعني في فراقه الحيلُ

فالعنى واحد مشترك بين الشعراء ، وللبحري الفضل لسبقه وما في بيته من طرافة .

وقد يأخذ الشاعر المعنى ويزيد عليه فيكون هو المتقدم على غيره .

قال الأفوه الأودي :

وترى الطيرَ على آثارنا .. رأى عينِ ثقةٍ أن ستمارُ

وقال أبو نواس :

تأبى الطيرُ غُدوته .. ثقةً بالشيخِ من جرّره

وقال أبو تمام :

وقد ظَلَّلتُ عَيْبَانَ أَعْلَامِهِ ضَحَىً .. بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلِ
أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَأَنَّهَا .. مِنَ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَقَاتِلْ

زعم كثير من النقاد أن أبا تمام زاد عليهم بقوله : « إلا أنها لم تقاتل » فهو المتقدم ،
يقول القاضي الجرجاني (١) : وأحسن من هذه الزيادة عندي قوله : « في الدماء
نواهل » وإقامتها مقام الرايات وبذلك يتم حسن قوله : إلا أنها لم تقاتل .

على أن الأفره الأودي قد فضل الجماعة بأمر :

منها السبق وهي الفضيلة العظمى .

والآخر قوله « رأى عين » فخير عن قربها لأنها إذا بعدت تخيلت ولم تر وإنما
يكون قربها متوقفاً للفريسة ، وهذا يؤيد المعنى .

ثم قال : « ثقة أن ستمار » فجعلها واثقة من المسيرة ، ولم يجمع هذه الأوصاف
غيره .

فأما أبو نواس فإنه نقل اللفظ ولم يزد فيفضل .

وقد يرى اللاحق من الشعراء معنى لشاعر سابق فيه نقص أو ضعف فيأخذ
المعنى بعد أن يجبر ما فيه من نقص ، ويدفع ما به من ضعف .

قال أبو تمام :

غربته العلاء على كثرة الأَهْـ .. ل فأضحى في الأقربين جَنِيًّا
فليطل عمسه ، فلو مات في مرٍ .. ومقيما بها لمات غريبًا

فقد أساء أبو تمام بذكر الموت في المديح ، فلا حاجة به إليه ، والمعنى لا يختل
بفقدته ، ومن مات في بلده غريباً فهو في حياته أيضاً غريب ، فأبي فائدة في استقبال
المدوح بما يتطير منه .

تناول أبو الطيب هذا المعنى وحذف ما به من تطير ونقاه من أو شابه .

فقال :

(١) الوساطة ٢٧٤ .

وهكذا كنتُ في أهلي وفي وطني .. إن النفيس غريب حيثما كانا
فأحسن ولم يسيء .

وقد يعجب الشاعر الفحل بيت من الشعر سمعه من قائله أو وصل إليه عن
غيره فيغتنب البيت ويعزوه لنفسه كما فعل الفرزدق إذ سمع جميلاً ينشد :
تري الناس ما سرنا يسرون خلفنا .. وان نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
فقال : أنا أحق بهذا البيت ، فأخذه غصياً .

وكما زعم دعبل أن أبا تمام قد أخذ قصيدته الرائية التي رثى بها محمد بن حميد
الطوسي من « أبو مكثف المزني في رثاء ذفاقة القيس » :
قال أبو مَكثَف :

أبعد أبي العباس يُستعجب الدهرُ .. وما بعده للدهر عتبي ولا عذرُ
ألا أيها الناعي ذفاقة والنسدي .. تعست وشلت من أناملك العشرُ
إذا ما أبو العباس خلى مكانه .. فما حملت أنثى ولا مسها طهرُ
ولا مطرت أرضاً سماءً ولا جرت .. نجومٌ ولا لذت لشاربها الخمرُ
كان بني القعقاع بعد وفاته .. نجوم سماءٍ خرّ من بينها البدرُ
توفيت الآمال بعد ذفاقة .. وأصبح في شغل عن السفر السفرُ
يعزّون عن ثاوٍ تُعزّي به العلاء .. ويكي عليه البأس والمجد والشعرُ
وما كان إلا مالٌ من قلّ ماله .. وذخرا لمن أسي وليس له ذخِرُ

فأخذ أبو تمام أكثر هذه القصيدة ، وجعل مكان « بني القعقاع » بني بنهان «
وأبدل بأسم « ذفاقة » « محمداً » .

يشير إلى قول أبي تمام :

كان بني بنهان يسوم وفاته .. نجوم سماءٍ خرّ من بينها البدرُ
توفيت الآمال بعد محمد .. وأصبح في شغل عن السفر السفرُ
يعزّون عن ثاوٍ وتُعزّي به العلاء .. ويكي عليه الجود والبأس والشعرُ

وأقبح السرقات ما يدل على نفسه باتفاق المعنى والوزن والقافية .

قال أبو تمام :

وما سافرت في الآفاق إلا .. ومن جنواك راحلي وزادي

أخذه أبو الطيب فقال :

مُحِيكَ حَيْثَمَا اتَّجَهْتَ رَكَابِي .. وَضَيْفُكَ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الْبِلَادِ

والمصراع الأول أيضاً احتذى فيه قول البحري :

متى ما أسير في البلاد ركائبي .. أجد سائقي يهوي إليك وقائدي

وقد يلجأ الشاعر إلى الأخذ فلا يحسن ولا يزيد ، وإنما يقصر عن سابقه (١)

فتلتحق به المذمة ، ويلتصق به العيب ، ومن ذلك ما قاله أشجع :

وعلى عدوك يا ابن عَسْمٍ محمد .. رصدان : ضوءُ الصبح والأظلامُ

فإذا تبَّه رَعْتَهُ ، وإذا غفأ .. سلَّت عليه سيوفُك الأحلامُ

فيأتي أبو الطيب ويأخذ المعنى ويقصر فيه :

يرى في النوم رمحك في كُلاه .. ويخشى أن يراه في السهاد

فقصر في ذكر الهاء ، لأنه أراد أن يقابل به النوم ، وبذلك يتم المعنى ، وليس

كل كل يقظة سهاداً ، إنما السهاد امتناع الكرى في الليل ، ولا يسمى المنصرف

في حاجاته بالنهار سهاداً وإن كان مستيقظاً .

ومن الأخذ الذي فيه تقصير قول ابن جبلة :

وما سَوَّدتْ عَجْلاً مَأْتَرَ عَزْمَهُمْ .. وَلَكِنْ بِهِمْ سَادَتْ عَلَى غَيْرِهَا عِجْلٌ

وهذا معنى سوء بقصر بالمدوح ، ويغض من حسبه ، ويحقّر من شأن سلفه ،

وإنما طريقة المدح أن يجعل المدوح يشرف بأبائه ، والآباء تزداد شرفاً به ، فيجعل

(١) الوساطة ٢٥٣ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ .

لكل منهم في الفخر حظاً ، وفي المدح نصيباً ؛ لأن شرف الوالد جزء من ميراثه ،
ومتقل إلى ولده كانتقال ما له ، فإن روعي وحرس ثبت وازداد ، وإن أهمل
وضيغ هلك وباد ، وكذلك شرف الولد يعم القبيلة ، وللوالد منه القسّم الأوفر ،
ولو اقتصر على قوله : « بهم سادت على غيرها عجل » لوجد العذر إليه مسلماً ،
ولأمكن أن يقال إنَّ عجلاً سادت بهم ، وبأفعالها أيضاً تسود القبيلة ، لكنه وعز
هذه الطريقة بقوله :

« وما سودت عجلاً مآثر عزمهم » فجعل الرجل بائناً لاحظاً له في حسب
آبائه وشرفهم .

والجيد في هذا المعنى ما سبقه إليه زهير بقوله .

وما بك من خير أتوه فإنما .. توارثه آباء آباؤهم قبيل
وجرى أبو الطيب على منهاج ابن جبلة فقال :

ما بقومي شرفتُ ، بل شرفوا بي وبففس فخرتُ لا بجلودي
فختم القول بأنه لا شرف له بآبائه ، وهذا هجو صريح ، وإن كان هناك من يلتمس
له العذر ؛ لأنه أراد أنه يكتفي بالفخر عليهم بنفسه ، ولا يفتر إلى مفاخر جدوده ،
فتركها وادعة موفورة .

والقاضي الجرجاني^(١) لا يقصر السرقة على ما ظهر منها ودعا إلى نفسه ، بل
يدعو الناقد إلى النظر فيما كمن ونضح عن صاحبه ، فلا يكتفي بتتبع الأبيات
المتشابهة والمعاني المتناسخة ، لإظهار التماثل في الألفاظ والظواهر دون أن يغوص
إلى المقاصد والأغراض ، وإنما على الناقد أن يتأمل الأبيات حتى يعرف اتساق
بعضها إلى بعض ، واتصال كل واحد منها بصاحبه ، مع افتتان مذاهبيهما واختلاف
مواقعهما :

فقول لبيد :

(١) الوساطة ٢٥٣ .

(٢) الوساطة ٢٠١ .

وما المال والأهلون إلا ودائعُ .. ولا بدَّ يوماً أن تُردَّ الودائعُ
وقول الأفوه الأودي :

إنما نعمة قومٍ متعةٌ .. وحيأة المرء ثوبٌ مستعار
فبين البيتين تناسب ، وأن عند الأفوه ذكر الحياة وعند لبيد ذكر المال والولد ،
وكان أحدهما جعل وديعة والآخر عارية .
وعلى الناقد البصير أن يعرف أن بيت المنقري :

وما المرء إلا حيثُ يجعلُ نفسه .. ففي صالح الأخلاق نفسك فاجعل
هو من قول الآخر :

فنفسك أكرمها ، فإنك إن تهننُ .. عليك فلن تلقى لها الدهرَ مُكرَ ما
وأن يدرك الناقد أن بيت المتنبي :

وفوارسٍ يُحيي الحمائمَ نفوسها .. فكأنها ليست من الحيوان
منقول من قول زهير :

تراه إذا ما جتته مهلاً .. كأنك تعطيه الذي أنت سائله
لأن زهيراً جعله يسر بالبلد حتى كأنه أخذ ، وجعله المتنبي يسرع إلى القتل
حتى كأنه حياة ، فالعنيان واحد في التحصيل .

فالأخذ قد يكون خفياً كما يكون ظاهراً ، ولا بد للناقد أن يتغلغل في المقاصد
والأغراض حتى يدرك الصلة بين المعاني ، والتناسب بين الأغراض ، فيرد هذا
إلى ذلك ولا يخفي عليه شيء من تفنن الشعراء .

وينبه القاضي الجرجاني على تفنن الشعراء في السرقة فيلجئون إلى طمس معالم
السرقة بتحويل معنى البيت إلى معنى آخر ونقله من غرض إلى غرض ، فتنتظي
هذه السرقة على الفرير ، وإن كانت لا تخفى على البصير فيقول : « وحتى لا
يفرك من البيتين المشابهين أن يكون أحدهما نسياً والآخر مديحاً ، وأن يكون

هذا هجاء وذاك افتخاراً ، فإن الشاعر الحاذق إذا علق المعنى المختلس عدل به عن نوعه وصنفته ، وعن وزنه ونظمه ، وعن رويته وقافيته ، فإذا مر بالغبي الغافل وجدهما أجنبيين متباعدين ، وإذا تأملهما الفطن الذكي عرف قرابة ما بينهما والوصلة التي مجدهما^(١) .

فكثير ينسب بصاحبته فيقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما .. تمثل لي ليلي بكل سيـل

وأبو نواس يمدح الرشيد فيقول :

ملك تصوّر في القلوب مثأله .. فكأنه لم يخُلْ منه مكان

فالأول في النسيب والثاني في المديح ، فيظن الغافل أن أحدهما من واد والآخر من واد ثان ، ولكن العالم لا يشك في أن أحدهما من الآخر ، وأن الصلة بين البيتين واضحة .

وقد ينجح الشاعر إلى قلب المعنى في بيت سبقه إليه شاعر ، فيظن أن ساحته قد برئت من تهمة النقل ، ولكن الناقد البصير يقف له بالمرصاد فيرد إلى مصدره الأول الذي أسغفه بالأخذ وأوحى إليه بالقلب .

بقول أبي تمام .

كريمٌ متى أمدحه والورى .. معي وإذا ما لمتُه لمتُه وحندي

فيعكس ابن أبي طاهر المعنى ويقول :

يشترك العالم في ذمّه .. لكنني أمدحُه وحندي

ثم يعقب الجرجاني على ذلك فيقول^(٢) :

(١) الوساطة ٢٠٤ .

(٢) الوساطة ٢٠٨ .

وهذا باب يحتاج إلى إنعام الفكر ، وشدة البحث ، وحسن النظر ، والتحرز من الإقدام قبل التبين ، والحكم إلا بعد الثقة .

وقد يغمض حتى يخفي ، وقد يذهب منه الواضح الجليّ على من لم يكن مرتاضاً بالصناعة ، متدرباً بالنقد .

(والحاتمي ت ٣٨٨ هـ) يتناول السرقات الشعرية وأنواعها ومراتبها في الفصل الخامس من كتابه حلية المحاضرة في صناعة الشعر .

فيقول نقلاً عن النوفليّ عن أبي طاهر أن^(١) «كلام العرب ملتبس بعضه ببعض ، وآخذ أوائله من أواخره ، والمبتدع منه والمخترع قليل إذا تصفحته وامتحنته ، والشاعر المحترس المتحفظ المطبوع بلاغة وشعراً من المتقدمين والتأخرين لا يسلم أن يكون كلامه آخذاً من كلام غيره ، وإن اجتهد في الاحتراس ، وباعد في المعنى ، وأقرب في اللفظ ، وأفلت من شبك التداخل ، فكيف يكون ذلك مع التكلف المتصنع ، والمعتمد القاصد

ومن ظن أن كلامه لا يلتبس بغيره ، فقد كذب ظنه ، وفضحه امتحانه ، ... ولو نظر ناظر في معاني الشعر والبلاغة حتى يخلص لكل شاعر وبلغ ما انفرد به من قول ، وتقدم فيه من معنى لم يشركه فيه أحد قبله ولا بعده ، لألقى ذلك قليلاً معدوماً ، ونزراً محدوداً .

ويقول في موضع آخر^(٢) : وقد أجمع علماء الشعر ونقاد الكلام ، وأرباب الصناعة أن من أخذ معنى أو لفظاً أو جمعاً لهما ، وقع الحكم على أن المبتدع منهما أعلاهما سناً ، وأقدمهما موتاً . وأن المتبع هو المتأخر منهما ، لاستقرار ذلك في الأكثر . فإن جمعهما عصر كان الأول منهما ما هو أكثر إحساناً وتناسباً في الكلام .

فإن وقع إشكال في ذلك ترك لهما ، ولم يقض لأحدهما بالاختراع دون صاحبه .

(١) حلية المحاضرة الحاتمي ٢٨/٢ ط العراق .

(٢) حلية المحاضرة الحاتمي ٦٩/٢ ، ٧٠ .

فأما الحكم في الاحتذاء والاتباع ، فإن المحتدي إذا تناول المعنى فكشف قناعه ، وأرهف لفظه ، وأحسن العبارة عنه ، واختار الوزن الرشيق له حتى يكون بالأسماع أشد علقاً ، وفي النفوس ألطف مسلماً ، كان أحق به ، ولا سيما إذا أخفى مسراه ويقع الحكم للشاعر بالبلاغ والابانة ... وإن كان للسابق فضيلته التي لا يدفع عنها ، ولا بد من الاعتراف بها ؛ إذ كان مطلع كواكبها في آفاقها ، وقادح زنادها .

الاشترك في اللفظ^(١) :

يقول الحاتمي : وقد اعتبر قوم هذا سرقا ، وليس بسرقة ، وإنما هي ألفاظ مشتركة محصورة يضطر إلى الموارد فيها ، إذا اعتمد الشاعر القول في معناها .

ومن هذا الباب قول عترة العبيسي :

وخيل قد دلفت لها بخيل .. عليها الأسد تهتمير اهتصارا
فقال عمرو بن معدى كرب :

وخيل قد دلفت لها بخيل .. تحية بينهم ضربٌ وجيعٌ
وقالت الخنساء :

وخيل قد دلفت لها بخيل .. فدارت بين كبشها رحاها
وقال أعرابي :

وخيل قد دلفت لها بخيل .. ترى فرسانها مثل الأسود
ثم يحل لنا الحاتمي الأسباب التي تضطر الشاعر أن يستعين بالألفاظ غيره ، فهو لا يجد بديلاً عنها في التعبير عن المعنى الذي قصده ، ولا يستطيع التحول عن هذه الألفاظ إلى ما هو أجل منها .

(١) الحلية ٦٨/٢ .

« فلو اجتهد هؤلاء الشعراء عند قصدهم الأخبار بما أخبروا به من هذا الوصف أن يوردوه بغير هذه العبارة وهذه العروض ما استطاعوا ؛ لأن اللفظ يضطرهم ، واعتماد العبارة الشريفة يقود أعتهم . فرب معان تختص بالفاظ شريفة لا يمكن تعديها إلى ما هو أشرف منها » .

وقد يتكافؤ المتبع والمبتدع في إحسانهما ، كما يتكافؤان في الأساءة فمن الأول وهو التكافؤ في الأحسان^(١) قول امرئ القيس :

فلو أنها نفسٌ تموتُ جميعها .. ولكنها نفسٌ تساقطُ أنفسا
فقال عبده بن الطيب :

فما كان قيس هلكه هلك واحد .. ولكنه بئيان قومٍ تهدما
ومن ذلك قول الأعشى :

إذا حاجة وأنتك لا تستطيعها .. فخذ طرفا من غيرها حين تُسبق
فقال عمرو بن معدى كرب :

إذا لم تستطع شيئا فدعه .. وجاوزه إلى ما تستطيع
فتكافؤا في هذين البيتين سواء المتبع والمبتدع تكافؤا لا يخفي على من يعرف أسرار الكلام .

ومن الثاني وهو التكافؤ في الأساءة والتقصير^(٢) .

والتهافت في قبح الاتباع قول الشماخ في مدح عرابة الأوس بقصيدة يخاطب فيها ناقه :

إذا بلغتني وحملت رحلي .. عرابة فاشركي بدم الوتين
ولما سمع الجلاح هذا البيت قال للشماخ : « بشس المجازاة جازيتها به » فلا أحد

(١) الحلية ٧٣/٢ .

(٢) الحلية ٨٣/٢ .

من علماء الشعر يحمد هذا المذهب من الشماخ ، ولا أجد لها وجهاً مرضياً في وصف النوق التي تمتطيا الشعراء إلى المدوحين .

ورغم هذه الأساءة فقد اقتضى ذو الرمة مذهب الشماخ في الأساءة فقال :
إذا ابن أبي موسى بلالاً بلغته .. فقام بفأسٍ بين وصلبك جازرٌ
واحتذى حذوهما أبو دهب الجمحي فقال :

يا نفاق سيري ، وأشرقسي .. بدمٍ إذا جئت المغيرة
ويتحدث الحاتمي عن السرقات الخفية التي يلجأ إليها الشعراء الحاذقون وصناع الكلام بأن يقلوا المعنى عن وجهه الذي وجه له ، من الوصف مثلاً إلى المدح أو قلب المعنى إلى غير ذلك مما تحدث عنه القاضي الجرجاني .

ومن السرقات الخفية عند الحاتمي ^(١) هي ما يلجأ إليها الشعراء المطبوعون حين يخفون السرقة ويلبسونه اعتماداً على مشور الكلام دون منظومه ، واستراقاً للألفاظ الموجزة ، والفقر الشريفة ، والمواعظ الواقعة ، والخطب البارعة .

من ذلك ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اليد العليا خير من اليد السفلى » فنظم أبو العتاهية بعض هذا اللفظ وأخلّ ببعضه فقال .

افرح بما تأتيه من طيب .. إن يدَ المعطي هي العليا
ومن ذلك قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « أنا لكم دُباله تضيء وتحترق » .

قال العباس بن الأحنف :

أحرمٌ منكم بما أقول وقد .. نال به العاشقون من عشقوا
حتى كأنني دُباله نُصبت .. تضيء للناس وهي تحترق

وقال عبد الله بن مسعود : « إن الرجل يظلمني فأرحمه » .

(١) الحلية ٩٢/٢ .

فنظم محمود الوراق هذا المعنى ، وقال :

إني شكرت لظالمسي ظلمي .. وغفرتُ له ذاك على علم
ما زال يظلمني وأرحمُسه .. حتى رثيت له من الظلم

ومن السرقة الخفية ضروب دقيقة من الإشارة إلى المعنى ، وإخفاء السر تستدعي
لطف النظر ودقة الملاحظة من الآخذ^(١) .

فمن لطيف النظر والملاحظة قول أوس بن حجر :

سأجزيك أو يجزيك عني مَثُوبٌ .. وحسبُك ان بُني عليك وتُحمدي
وهذا ينظر اليه قول الخطيئة نظراً خفياً حتى يكشف قناعه :

مَنْ يفعل الخيرَ لا يُعَدُّمُ جوازِيه .. لا يذهب العُرف بين الله والناس
فقوله : « لا يذهب العرف بين الله والناس » هو قول أوس بن حجر :

« سأجزيك أو يجزيك عني مَثُوبٌ » ، لأن المَثُوب هو الله عز وجل وإن
كان في بيت الخطيئة زيادة بذكر الناس .

ومن لطيف النظر والملاحظة قول الشاعر :

إذا بلّ من داء به ، ظن أنه .. نجا ، وبه الداء الذي هو قاتله
نظر إلى هذا المعنى ابن الرومي نظراً خفياً فقال :

نظرتُ فاقصدت الفؤادَ سهيها .. ثم اثنتُ عنه فكاد يهيمُ
ويلاه ! ان نظرتُ ، وإن هي أعرضت .. وقعُ السهام وتزعُهن أليم

ويورد لنا الحاتمي أنواع السرقات ويبدأ بالانتحال . فيقول^(٢) :

(١) الحطية ٢/٨٦ .

(٢) الحطية ٢/٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

أجمع العلماء بالشعر وأصحاب العربية أن امرؤ القيس أول من بكى الديار ، ورثى الآثار ، وإذا تصفحت شعره استدلت ببعضه على بطلان هذا الأجماع ، ألا ترى إلى قوله :

عوجاً على الظلل المحيل لعننا .. نبكي الديار كما بكى ابن حذام
وإذا سئل العلماء عما وصف به ابن حذام الديار ، أنشدوا أبياتاً من « قفا نبك »
وذكروا أن امرؤ القيس انتحلها فسارت له ، وخمل ذكر ابن حذام .

وحكي أبو عبيدة أن ابن حذام الكلبي كان يصحب امرؤ القيس بن حجر
الكندي ، أنه أول من وصف الديار .

كذلك بيت النابغة الذبياني :

فلست بمستبق أحداً تلمسه .. على شعث ، أي الرجال المهذب
تزعم بنو سعد أن هذا البيت لرجل منهم .

وقد حكي أبو عبيدة أيضاً أن معظم الشعر الذي يرويه الناس لعترة هو
لهراش بن شداد .

ويذكر الحاتمي أن الفرزدق انتحل قول أخيه الأخطل بن غالب المجاشعي :

وركب كأن الريح تطلب عندهم .. لها يرة من جذبها بالعصائب
ويذكر هذا البيت وسبعة أبيات أخرى بعده .

وكان الأخطل هذا شاعراً طويل اللسان ، كثير المحاسن ، فكسفه الفرزدق
فانطوى فضله . وكان أبو عمرو بن العلاء لا يعاب شعر الفرزدق ، ويظن أنه ليس
له ملكة رياضة الشعر ونحي عليه ، واستنشد يوماً فأنشده :

كم دون مية من مستعمل قليف .. ومن قلاة بها تستودع العيش
فقال : يا فرزدق أنت قلت هذا ؟ فقال : أكتمها على ! فوالله لضوال الشعر أحب
إلي من ضوال الأهل .

ثم يتحدث الحاتمي عن الاغارة (١) .

وهو أن يسمع الشاعر المغلق الأبيات الرائعة ، ندرت لشاعر في عصره وهي بشعره أليق وبكلامه أعلق ، فيغير عليها مصافحة ، ويستنزل شاعرها عنها قسراً ، فيسلمها إليه اعتماداً لسلمه ، ومراقبة لحربه ، وعجزاً عن مساجلته ... ومن ثم استمرت للفرزدق الإغارة على شعر جميل وغيره ، فإنه عاور جماعة من الشعراء في عصره على قطع من أشعارهم جرت في أساليب كلامه ... فسلموها له عنوة ، وصفحوا عنها نكولا عنه .

ويضرب الأمثلة على ذلك . فقد وقف الفرزدق يوماً على الشمردل اليربوعي وهو يشد لنفسه :

وما بين من لم يُعط سُمماً وطاعسةً .. وبين تميمٍ غير جزّ الغلاضيمِ
فقال الفرزدق : « لتركته ، أو لتتركن عرضك » فقال له الشمردل « خذه ، لا يارك الله لك فيه » فهو في قصيدته التي أولها :

تحننٌ إل زور اليمامة ناقتسي .. حين عجول تبغي البورائيم
التي يهجو فيها جريرا .

ومن ذلك أيضاً أن موسى شهوات أنشد قصيدة على الراء أمام الأحوص ، أحسن فيها حتى مر بهذا البيت :

وكذاك الزمان يذهب بالسند .. اس ، وتبقى الديار والآثار
فقال الأحوص على رويها قصيدة أدخل فيها هذا البيت ، فقال موسى شهوات :
« ما رأيت مثلك يا أحوص ! أنشدتك قصيدة لي ، فذهبت بأفضل بيت فيها ، فقال الأحوص : « والله ما هو لي ولا لك ، وما هو إلا للبيد حيث يقول :
وكذاك الزمان يذهب بالسند .. اس وتبقى الديار والآثار

(١) الحلية ٣٩/٢ ٤١ .

ففعفا آخر الزمان عليهم .. فعلى آخر الزمان الديبار

وينتقل الحاتمي إلى التوارد^(١) :

وهو أن يتفق الشاعران في المعنى ويتواردا في اللفظ دون أن يلقي أحد منهما صاحبه ولا سمع بشعره . ويعلل أبو عمرو بن العلاء هذه الظاهرة فيقول : « تلك عقول رجال توافت على ألسنتها » .

فامرؤ القيس يقول :

وكل ذي أبـل مود فتاركها .. وكل ذي سلب لا بد مسلوب

وعبيد بن الأبرص أيضاً يقول :

وكل ذي إبـل مودٍ يورثها .. وكل ذي سلب لا بد مسلوب

وعبيد وامرؤ القيس كانا في زمن واحد .

فأما قول امرؤ القيس :

وقد طوفت بالآفاق حتى .. رضيت من الغنيمة بالأياب

وقول عبيد بن الأبرص مخاطباً لامرؤ القيس في شعره :

ولو لاقيت غلباء بن حزم .. رضيت من الغنيمة بالأياب

فأظن عبيدا ردّد هذا المصراع ، تعريضا بقوله ، لا على جهة السرقه .

والاجتلاب^(٢) ليس عيبا ولا يعد من السرقات .

وهو أن يأخذ الشاعر البيت فيدخله في شعره على طريق التمثيل وقد تفعل العرب ذلك ، فلا يريدون السرقة .

(١) الحلية ٤٥/٢ ٤٦ .

(٢) الحلية ٥٨/٢ ٦٠ .

ويروي الرواة عن الأصمعي أنه قال : ربما اجتلب الشاعر البيت ليس له ،
فاجتذبه من غيره ، فيورده شعره على طريق التمثيل به ، لا على طريق السرق له
كما قال النابغة الذبياني :

تمزّزتها والديكُ يدعو صباحه .. إذا ما بنو نعش دنوا فتصوّبوا
فأجتلب الفرزدق هذا البيت ، ولم يسلبه ، ولا حاول أن يغير عليه ، - وان كانت
الغارة عادته - وإنما أورده اجتلاباً واستلحاقاً ، وكان أبو عمر ابن العلاء لا يرى
ذلك سرقا .

وقد يجلب الشاعر البيت أو البيتين من شعر شاعر ، أو المعنى والمعنيين ، إذا
كان الشاعر مخاطباً له ، وكان هو مجيباً عن مخاطبته ، وكذلك يلقي في شعر
جرير والفرزدق ، ولا نرى ذلك سرقا .

كقول الفرزدق :

إنّ الذي سمك السماء بنى لنا .. بيتاً دعائمه أعزُّ وأطولُ
فقال جرير رادا عليه :

إن الذي سمك السماء بنى لنا .. عزا علاك فما له من متقل
الاهتمام^(١) :

وهو افتعال من الهدم ، فكأنه هدم البيت من الشعر ، تشبيهاً بهدم البيت
من البناء ؛ لأن البيت من الشعر يسمى بيتاً لاشتماله على الحروف كما يشتمل
البيت على ما فيه .

ومن ذلك قول كثير .

قامت تودعنا والعين ساجمة .. كأن انسانها في لجة غرق
ثم استدار على أرجاء مقلتها .. مُبادراً خلصات الطرف يَسْتَبِقُ
كأنه حين مسار المأقيان به .. درُ تسلل من أسلاكه نسقُ

(١) الحلية ٦٤/٢ ٦٥ .

فاهتم فيها قول جميل :

قامت تودعنا والعين ساجمة .. إنسانها بفضيض الدمع مكتمل
ثم استدار على حوراء ساجية .. حتى تبادر دمعها الهمل
كأنه حين مار المأقيان به .. درّ تقطع منه السلك منفصل
التلفيق والترقيع^(١) : وهو ترقيع الألفاظ ، وتلفيقها ، واجتناب الكلام من أبيات ،
حتى ينظم بيتا . فمن التلفيق قول يزيد بن الطثرية :

إذا ما رأيي مُقبلاً غَضَّ طرفه .. كأن شعاعَ الشمسِ دوني يُقابله
فقوله : « إذا ما رأيي مقبلاً » من قول جميل :

إذا ما رأيي طالماً من ثيبه .. يقولون : من هذا ؟ وقد عرفوني
وقوله « غَضَّ طرفه » من قول جرير :

فغَضَّ الطرف إنك من تُمير .. فلا كعباً بلغت ولا كلاباً
وقوله « كأن شعاع الشمس دوني تقابله » فمن قول عترة بن عكبرة الطائي :

إذا أبصرتني أعرضت عني .. كأن الشمس من قبلي تدور

٣

وابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) تناول السرقات الشعرية في الجزء الثاني من كتابه العمدة
وهو في حديثه عن السرقات لا يخرج بحال عما سبقه إليه الحاتمي في حلية
المحاضرة ، والجرجاني في الوساطة .

فالسرقه عنده كما عند الحاتمي باب متسع جداً لا يقدر أحد من الشعراء
أن يدعي السلامة منه ، وفيه أشياء غامضة الأ على البصير الحاذق بالصناعة ، وآخر
فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل^(٢) .

(١) الحلية ٩٠/٢ .

(٢) العمدة ابن رشيق ٢٨٠/٢ ط محي الدين .

وسائر الألفاظ المتبدلة لا يسمى تناولها سرقة ؛ لأنها مشتركة لا أحد من الناس أولى بها من الآخر ، فهي مباحة غير محظورة ، إلا أن تدخلها استعارة ، أو تصحبها قرينة تحدث فيها معنى ، أو تفيد فائدة ، فهناك يميز الناس ويسقط أسم الاشتراك . وقد نص عليه القاضي الجرجاني انه من المقول المتداول المتبذل .
أما الاشتراك في المعاني فنوعان^(١) :

أحدهما : إذا اختلفت العبارة عنهما وتباعد اللفظان ، فذلك هو الجيد الحسن كقول عبدة بن الطبيب يصف ثوراً وحشياً :

مُجْتَابٌ يَصْعُجُ جَدِيدٌ فَوْقَ نُقْبَتِهِ .. وفي القوائم من خالٍ سراويلُ
وقال الطرمّاح يصف ظليماً :

مُجْتَابٌ شَمْلَةٌ بُرْجِدٌ لَسْرَاتِهِ .. قَدْرًا فَاسْلَمَ مَا سِوَاهُ الْبُرْجِدِ
فوصف الأول بياض الثور وسواد قوائمه وتخطيطها ، فشبّه ظهره كأن عليه نصعاً جديداً ، وهو الثوب الأبيض ، وشبه ما في قوائمه من السواد والتخطيط بسراويل من الخال ، وهو ضرب من الوشي .

وقال الثاني : انه مجتاب شملة برجد ، يريد ما على الظليم من قرونه ، والبرجد : كساء أسود مخمّل ، وجعل الشملة قدراً لسرّاته دون رجليه وعنقه ، فدل على بياضهن .

والنوع الثاني : على ضربين :

أحدهما : ما يوجد في الطباع من تشبيه الجاهل بالحمّار ، والحسن بالقمر ، والشجاع بالأسد وما شابه ذلك ؛ لأن الناس كلهم فيه سواء ، وهو متأصل في طباعهم .

والثاني : ما كان مخترعاً ثم كثر حتى استوى فيه الناس ، وتواطأ عليه الشعراء آخراً من أول ، كتشبيه الخد بالورد ، والقصد بالعصن ، والعين بعين المها ، والعق

(١) المصنوع ٩٨/٢ ١٠٠ .

بعقن الطيبي وهذا ليس من باب السرقة إلا إذا ولد فيه الشاعر زيادة تستوجب انفراده .
به .

وما ذكره ابن رشيق هو ترديد لكلام القاضي الجرجاني^(١) .

ويوضح ابن رشيق أن السرقة إنما هو في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر ، لا في المعاني المشتركة التي هي جارية في عاداتهم ، ومستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم ، مما ترتفع به الظنة عن أن يقال إنه أخذه من غيره .

ويصف الشاعر السارق^(٢) بالبلادة والعجز ، إذا اتكل على السرقة ، كما يصفه بالجهل إذا ترك كل معنى سبق إليه ، والمختار عنده هو أوسط الحالات .

ويكون المتبع أولى بالمعنى من مبتدعه^(٣) ، وإذا تناول المعنى فأجاده ، بأن يختصره إذا كان طويلاً ، أو يبسطه إن كان كراً ، أو يبيته إن كان غامضاً ، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافاً ، وكذلك إذا قلبه ، أو صرفه عن وجهه إلى وجه آخر .

أما إن ساوى المتبع المبتدع فله فضيلة حسن الاقتداء لا غيرها ، فإن قصر كان ذلك دليلاً على سوء طبعه وسقوط همته ، وضعف قدرته .

ثم يتحدث عن أنواع السرقات من اجتلاب وانتحال واغارة وغضب واهتمام وعكس مما سبقه إليه الحاتمي .

ويعتبر من أجل السرقات نظم النثر وحل الشعر ، وليس على سارقه جناح عند الحذاق من النقاد .

٤

وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) يفرد فصلاً عن الاتفاق في الأخذ والسرقة في كتابه أسرار البلاغة ويستهل بقوله :

(١) الوساطة ١٨٥ .

(٢) السنة ٢٨١/٢ .

(٣) السنة ٢٩٠/٢ .

أعلم أن الشاعرين إذا اتفقا لم يخل ذلك في أن يكون :

١ - الاتفاق في الغرض على العموم .

٢ - الاتفاق في وجه الدلالة على الغرض .

والاشترك في الغرض على العموم بأن يقصد كل واحد منهما وصف ممدوحه بالشجاعة والسخاء ، أو حسن الوجه والبهاء - والاشترك في وجه الدلالة على الغرض ، بأن يذكر ما يستدل به على اثبات الشجاعة والسخاء مثلاً .

أما بالتشبيه كأن يشبه الممدوح بالأسد والبحر في الشجاعة والسخاء .

وأما بذكر هيات لا تكون إلا وصفاً للممدوح دون غيره من الناس كوصف الرجل في حال الحرب بالابتسام ، وسكون الجوارح ، وقلة الفكر ، أو وصفه بالتهلل عند ورود العفاة والارتياح لرؤية المحتاجين .

والأنتاق في عموم الغرض لا يكون الاشتراك فيه داخلاً في الأخذ والسرقة ، والاتفاق في وجه الدلالة على الغرض إذا اشترك الناس في معرفته كان حكمه حكم الاتفاق في عموم الغرض ولا يدخل في باب السرقات كالتشبيه بالأسد في الشجاعة وبالبحر في السخاء ؛ لأن هذا مما لا يختص بمعرفة قوم دون قوم ، ولا يحتاج في العلم به إلى روية واستنباط أو تدبير وتأمل ، وإنما هو في حكم الغرائز المركوزة في النفوس .

أما إذا كان الاتفاق في وجه الدلالة على الغرض لا ينتهي إليه المتكلم إلا بعد النظر والتدبير ، ولا يناله إلا بالطلب والاجتهاد وتجشم الصعود إليه ، إذا كان هذا شأنه ، فهز الذي يجوز فيه الاختصاص والسبق والتقدم ، وأن يقضي بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين ، وأن أحدهما زاد على الأول أو نقص عنه ، أو أرتقى إلى غاية أبعد من غايته أو انحط إلى منزلة هي دون منزلته .

ثم يعود عبد القاهر إلى التفصيل في النوع الأول وهو الاتفاق في عموم الغرض فيقول :

(١) الأسرار ٣٨٢ ٣٩٦ عبد القاهر الجرجاني ط الاستقامة .

وأعلم أن ذلك الأول وهو المشترك العامي والذي قلت إن التفاضل لا يدخله ، إنما يكون كذلك إذا كان صريحاً لم تلحقه صنعة أو لم يعمل فيه نقش ، فأما إذا ركب عليه معنى ووصل به لطيفة ، ودخل إليه من باب الكناية والرمز بحيث تتغير طريقته وتستانف صورته ، صار من قبيل الخاص الذي يتوصل إليه بالتدبر والتأمل ، كقولهم وهم يريدون التشبيه « سلين الطباء العيون » وإن السحاب يستحيي إذا نظر إلى نذاك » .

كقول عبيد الراعي :

سلين طباء ذي نفر طلاما .. ونجل الأعين البقر الصوارا

وكقول أبي نواس :

إن السحاب لتستحيي إذا نظرت .. إلى نذاك فقاسته بما فيها

فهذا كله في أصله ومغزاه ، وحقيقة معناه ، تشبيه ، ولكنه كنى لك عنه وسلك مذهب التخيل فيه ، فصار لذلك غريب الشكل بديع الفن ، منيع الجانب ، وإذا حققت النظر ، وجدته ليس من قبيل الظاهر المعروف بل هو من الخصوصيات التي تنفي الاشتراك :

فقد أوهمك في بيت الراعي أن ثمة سرقة ، وأن العيون منقولة إليها من الطباء وإن كنت تعلم إذا نظرت أنه يريد أن يقول : إن عيونها كعيون الطباء في الحسن وقتور النظر .

وكذلك يوهمك أبو نواس بقوله : « ان السحاب لتستحيي » أن السحاب حتى يعرف ويعقل ، وأنه يقيس فيضه بفيض كف الممدوح فيخزي ويخجل ، فالاحتفال والصنعة إنما هي في التصوير الذي يروق السامعين ويروعهم ويدخل النفس في حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها ، هذا التصوير الذي يكسب الدنيا رفعة ، والغامض القدر نياحة . ويؤكد ذلك بضرب الأمثلة من الشعر الذي يرفع الدنى ، ويجعل من الشيء المستنكر حلاوة وسحراً .

فالقبيلة التي كانت تعبر بأنف الناقة - صار هذا اللقب موضع فخار لهم حين قال فيهم الحطيئة :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم .. ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا
وكذلك ما يعرف من حالة الصلب الذي يملأ النفوس انكاراً ، وتزعج له القلوب
استغظاعاً ، ويفري الألسنة بالإستعادة من سوء القضاء ، حين تنقلب هذه الحالة
على يد الشاعر إلى خلافها ، وما يصنع فيها من السحر بتأويلها فيقول .

علو في الحياة وفي الممات .. بحق أنت إحدى المعجزات
كان الناس حولك حين قاموا .. وفود نذاك أيام الصلوات
كانك قائم فيهم خطيباً .. وكلهم قيام للصلاة
هددت يديك نحرهم احضاءً .. كمدتها إليهم بالهيات
لعظمتك في النفوس تبيت ترعى .. بحراس وحفاظ ثقات
وتشعل عندك النيران ليلاً .. كذلك كنت أيام الحياة

٥

ونرى محمد بن علي الجرجاني الذي صنف كتابه « الأشارات والتبيلات
في علم البلاغة » سنة ٧٢٩ هـ يتناول في خاتمة الكتاب السرقات الشعرية ويقسمها
إلى ثلاثة أقسام^(١) :

الانتحال ، والإغارة ، والإلمام .

الأول : الانتحال ويسمى فسخاً ، وهو : سرقة المعنى بالفاظه من غير تغيير ،
أو بعض تغيير ، وهو مذموم جواً .

فما كان بدون تغيير ، هو البيت الذي وجه في قصيدتي زهير وأوس :

إذا أنت لم تُعرض عن الجهل والخنا .. أصبتَ حليماً ، أو أصابك جاهلٌ

وما كان ببعض تغيير كقول الأبيرد البربوعي :

فتى يشتري حسن النساء بماله .. إذا السنةُ الشهباءُ أعوزها القطرُ

(١) الأشارات والتبيلات في علم البلاغة ص ٣٠٦ ط نهضة مصر .

وفي شعر أبي نواس :

فتى يشتري حسنَ الثناء بماله .. ويعلمُ أنَّ الوائراتِ تدورُ

الثاني : الإغارة ويسمى : مسخا ، وهو أخذ المعنى بتغيير نظمه وهو محمود إن اختص بفضيلة كحسن السبك ، أو الاختصار ، أو الإيضاح ، أو زيادة معنى ، كقول بشار :

من راقب الناسَ لم يظفرُ بحاجته .. وفاز بالطَّيِّباتِ الفاتِكُ اللِّهْجُ
وقول سلم الخاسر :

من راقب الناسَ ماتَ همَّأ .. وفزاز باللئنة الجَورُ
فيت سلم أجود سبكا وأخصر .

وإن كان أدون في البلاغة فهو مردود ، كقول أبي الطيب :

أعدى الزمانَ سخاؤه فسَخَا به .. ولقد يكون به الزمانُ بخيلاً
أخله من أبي تمام :

هيهات ، لا يأتي الزمانُ بمثله .. إن الزمانَ بمثله لبخيلٌ
فأفسد أبو الطيب بيته بلفظتى : « قد ، ويكون » فإن « قد » في المضارع للتقليل ، فتزيد بالمفهوم على عدم بخل الزمان بمثله .

« ويكون » للزمان المستقل ، فتزيد بالمفهوم على عدم بخله في الماضي .

الثالث : الإلمام ، ويسمى سلخا .

وهو أخذ المعنى من غير التعرض للفظ ، كقول البحري :

تصدَّ حياءً أن تراك بأوجهٍ .. أتى الذنبَ عاصيها فليمَ مطيعُها
وقول أبي الطيب :

وَجُرْمٌ جَرَّهُ سَفَهَاءُ قُـومٌ .. وَحَلٌّ بَغِيرَ جَارِمِهِ الْعَذَابُ

وهو أجود من الأول بحسن السبك كأنه اقتبس من قوله تعالى :
(أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا) الأعراف ١٥٥ .

وبعد أن يفرغ من ذكر السرقات الشعرية ، يشرع في ذكر ما يشبه السرقة ،
لخفاء المعنى^(١) ويقسمه إلى عدة أقسام :

الأول : التشابه بين المعنيين ، كقول الطرماح :

لقد زادني حباً لنفسي أنسي .. بغيض إلى كل امرئ غير طائل
وقول أبي الطيب .

وإذا أتتك ملتمني من ناقص .. فهي الشهادة لي بآني كامل
والثاني : النقل أي نقل المعنى من شيء إلى آخر ، كقول البحتري :

سلبوا وأشرفت السماء عليهم .. محمّرة ، فكأنهم لم يسلبوا
وقول أبي الطيب :

يَسُ النجيبُ عليه وهو مجردٌ .. عن غمده ، فكأنما هو مُقَمَّدٌ
فإنه نقل المعنى من الإنسان إلى السيف .

الثالث : أن يكون المعنى الثاني أكثر مبالغة من الأول ، كقول جرير .

إذا غضبت عليك بنو تميم .. وجدت الناس كلهم غضاباً
وقول أبي نواس :

ليس على الله بمستكبر .. أن تجمع العالم في واحد
وهذا أكثر مبالغة من بيت جرير .

(١) الاشارات والتبهمات في علم البلاغة ص ٣١٢ .

الرابع : قلب المعنى إلى نقيضه ، كقول أبي الشيص :

أجوام الملامة في هوائك لذيدةً .. حباً لذكرك ، فليُلمني اللومُ

فقلب أبو الطيب هذا المعنى إلى نقيضه فقال :

أحبهُ وأحبُّ فيه ملامسةً ؟ .. إن الملامةَ فيه من أعدائه

الخامس : التحسين ، وهو أن يأخذ بعض المعنى ويضيف إليه ما يحسنه كقول الأفوه الأودي :

وترى الطيرَ على آسارنا .. رأى عينٍ ثقةً أن سُمَارَ

وقول أبي تمام :

وقد ظَلَّلتُ عِقبانُ أعلامه ضحىً .. يعقبان طيرٍ في الدماء نواهلٍ
أقامتْ مع الرايات حتى كأنها .. من الجيش ، إلا أنها لم تُقاتلِ

أخذ بعض معنى الأفوه ، وزاد عليه زيادات حسنة لا تخفى .

٦

والعصام صاحب الأطول (ت ٩٥١ هـ)^(١) يسير على منوال الخطيب القزويني (ت ٧٣٩ هـ) ولا يعدو أن يكون شارحاً لتلخيص المفتاح . وإن كان يتميز بنظراته الثاقبة ، وتحليلاته العميقة . وهو في معالجه للسرقات يتبع خطوات الخطيب القزويني سواء في ترتيبه أو في شواهد .

وصاحب الأطول يرى أن السرقة تجري في الشعر وفي غير الشعر أيضاً ، وأن السرقة والأخذ لفظان مترادفان بمعنى واحد .

والسرقة تكون ظاهرة وغير ظاهرة .

فالسرقة الظاهرة تكون بأخذ اللفظ ، أو أخذ المعنى ، أو كليهما معاً .

(١) الأطول ٢/٢٤٠ . العصام - ط ١٢٨٤ هـ .

فإذا أخذ المعنى مع اللفظ كله من غير تغيير لنظمه فهي سرقة محضه ، وهو
النسخ المذموم حتى وأن بدل الكلمات كلها أو بعضها بما يرادفها ، كأن يأتي شاعر
إلى قول الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها .. واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
فقال : -

ذر المآثر لا تذهب لمطلبها .. واحبس فإنك أنت الآكل اللابس
أو بما يقابلها كأن يقول في بيت حسان :

بيضُ الوجوه كريمه أنسابهم .. شمُ الأنوف من الطراز الأول
سود الوجوه لثيمة احسابهم .. فطس الأنوف من الطراز الأول
وهذا القلب من النوع غير الظاهر .

* * *

أما إذا لجأ الشاعر إلى تغيير النظم .

فإن كان الثاني أبلغ من الأول لفضيلة فيه كاشتماله على محسن ذاتي فهو
ممدوح كقول الشاعر :

خلقنا لهم في كل عين وحاجب .. بُسمر القنا والبيض عيناً وحاجباً
وقول ابن نباته :

خلقنا بأطراف القنا في ظهورهم .. عيوناً لها وقعُ السيوف حواجبُ
فبيت ابن نباته أبلغ ؛ لاختصاصه بزيادة معنى : وهو الإشارة إلى انهزامهم ،
حيث وقع الطعن والضرب على ظهورهم .

وإن كان الثاني دون الأول فهو مذموم وذلك إذا كان الأول يتمتع بفضيلة
عرى منها الثاني .

وإن كان الثاني مثل الأول في الحسن ، فهو أبعد عن الذم .
وإن أخذ الثاني من الأول المعنى وحده .
فإن كان أبلغ من الأول فهو مملوح .
وإن كان دونه فهو مذموم .
وإن كان مثله فهو أبعد عن الذم .

* * *

هذا فيما يتعلق بالسرقة الظاهرة .

أما السرقة غير الظاهرة ، فهي ما سبق أن ذكره الجرجاني في الاشارات وأطلق عليها « ما يشبه السرقة » وذكر لها ألواناً من : تشابه المعنيين أو نقل المعنى إلى معنى آخر ، أو أن يكون الثاني أشمل من الأول وأكثر مبالغة منه ، أو قلب المعنى إلى نقيضه ، أو أخذ بعض المعنى وإضافة ما يحسنه إليه ، وقد ذكرنا الأمثلة على كل ذلك في الحديث عن صاحب الأشارات والتنبيهات .

ويرد صاحب الأطول في نهاية الحديث عن السرقات عبارة الخطيب .
« هذا كله إنما يكون إذا علم أن الثاني أخذ من الأول ، بأن يعلم أنه كان يحفظ قول الأول حين نظم ، أو بأن يخبر هو عن نفسه أنه أخذه منه ، لجواز أن يكون الاتفاق من قبيل توارد الخواطر من غير قصد إلى الأخذ ، وتوارد الخواطر أكثر من أن يحصى في المعاني ، وأن كان توارد الشعر بعينه أو بأكثر ألفاظه قليلاً .

فإذا لم يعلم أنه كان يحفظ قول الأول ، أو لم يخبر هو نفسه بالأخذ .

قيل : قالوا فلان كذا ، وقد سبقه إليه فلان ، فقال : كذا ، ليغتم الناقد بذلك فضيلة الصديق ، ويسلم من دعوى العلم بالغيب ، ومن نسبة الغير إلى النقص .

* * *

المراجع

- ١ - أثر النحاة في البحث البلاغي - عبد القادر حسين - نهضة مصر
- ٢ - أخبار أبي تمام - الصولي - ١٩٣٧
- ٣ - الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة - القاضي الجرجاني - نهضة مصر
- ٤ - الخصائص - ابن جنى - دار الكتب
- ٥ - أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجاني - الاستقامة
- ٦ - الأطول - العصام - ايران
- ٧ - اعجاز القرآن - الباقلاني - دار المعارف
- ٨ - امالي المرتضى - الشريف المرتضى - عيسى الحلبي
- ٩ - الايضاح - الخطيب القزويني - بيروت
- ١٠ - بديع القرآن - ابن أبي الأصبغ المصري - نهضة مصر
- ١١ - البرهان في علوم القرآن - الزركشي - عيسى الحلبي
- ١٢ - البلاغة تطور وتاريخ - شوقي ضيف - دار المعارف
- ١٣ - البيان والتبيين - الجاحظ - الخانجي
- ١٤ - تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبه - عيسى الحلبي
- ١٥ - تجديد الفكر العربي - زكي نجيب محمود - دار الشرق
- ١٦ - جواهر الألفاظ - قدامة بن جعفر - محيي الدين
- ١٧ - خزنة الأدب - ابن حجة الحموي - ط أولى
- ١٨ - دراسات في تاريخ الأدب - كراتشكوفسكي - ١٩٦٥
- ١٩ - شروح التلخيص - القزويني وآخرين - عيسى الحلبي
- ٢٠ - الشعر المصري بعد شوقي - محمد مندور - نهضة مصر
- ٢١ - الصناعتين - أبو هلال العسكري - عيسى الحلبي

- ٢٢ - الطراز - العلوي - المقتطف
- ٢٣ - أبو الطيب المتنبي وماله وما عليه - الثعالبي - ١٩١٥
- ٢٤ - عروس الأفراح - السبكي - عيسى الحلبي
- ٢٥ - عقود الجمان - السيوطي - مصطفى الحلبي
- ٢٦ - فن القول - أمين الخولي - دار الفكر العربي
- ٢٧ - في أصول الأدب - الزيات - الثالثة
- ٢٨ - كتاب البديع - ابن المعتز - دار العهد الجديد
- ٢٩ - الكشف - الزمخشري - الاستقامة
- ٣٠ - المطول - الفتازاني - ١٣٣٠ هـ
- ٣١ - مقدمة بديع القرآن - حفي شرف - نهضة مصر
- ٣٢ - مقدمة شرح ديوان الحماسة - المرزوقي - تونس
- ٣٣ - الموازنة - الأمدى - دار المعارف
- ٣٤ - النقد والنقاد المعاصرون - محمد مندور - نهضة مصر
- ٣٥ - نقد الشعر - قدامة بن جعفر - الخانجي
- ٣٦ - النكت في اعجاز القرآن - الرماني - دار المعارف
- ٣٧ - نهاية الأرب - النويري - دار الكتب
- ٣٨ - الوساطة بين المتنبي وخصومه - القاضي الجرجاني - عيسى الحلبي ، والقاهرة

المحتويات

صفحة	
٥	المقدمة
الباب الأول	
٩	البديع عند النقاد
الباب الثاني	
٤١	البديع عند البلاغيين
٤٥	الفصل الأول : المحسنات المعنوية
٤٥	الطباق
٤٩	المقابلة
٥٣	التدبيح
٥٤	مراعاة النظرير
٥٦	تشابه الأطراف
٥٧	التضويق
٥٩	الأرصاد
٦١	المشاكله
٦٣	المزاوجه
٦٤	العكس والتبديل
٦٦	التورية
٦٩	الاستخدام
٧١	اللف والنشر

الصفحة

٧٥ الجمع - التفريق - الجمع مع التفريق
٧٦ التقسيم - الجمع مع التقسيم - الجمع مع التقسيم والتفريق
٧٩ التجريد
٨٢ المبالغة - أقسامها
٨٩ المذهب الكلامي
٩١ حسن التعليل
٩٣ تأكيد المدح بما يشبه الذم
٩٥ تأكيد الذم بما يشبه المدح
٩٥ التوجيه
٩٧ الهزل الذي يراد به الجحد
١٠٠ تجاهل المعارف
١٠٣ القول بالموجب
١٠٦ الاطراد
١٠٩ الفصل الثاني : المحسنات اللفظية :
١٠٩ الجناس
١٠٩ الجناس المستوفي التام
١١١ الجناس المركب
١١٢ الجناس المقروق - الجناس المرفوق
١١٣ الجناس المحرف
١١٤ الجناس المصحف
١١٥ الجناس الناقص
١١٧ الجناس المضارع والجناس الملاحق
١١٨ الجناس المقلوب
١٢٠ ما يلحق بالجناس
١٢١ جناس المزوجة وجناس المناسبة
١٢١ الجناس اللفظي والجناس المعنوي
١٢١ الجناس الردي :

الصفحة

١٢٣	رد الإعجاز على الصدور
١٢٦	السجع وأنواعه وشروطه
١٣٢	لزوم ما لا يلزم
١٣٥	السرققات الشعرية
١٤٩	الاشتراك في اللفظ
١٥٦	الاهتمام
١٦٨	المراجع

مطابع الشروط

شركة وولف، ص.م.ع.، منشأة 8، 6، طابق، ٢٦٥٤٥٩ - ٢٦٥٤٠١ - بركة، الشرق - الكويت، NERSONIK BHD
القطرية (١٦) شارع جويلا، ص.م.ع.، منشأة ٧٧٤٤٣١ - ٧٧٤٤٧٩ - بركة، الشرق - الكويت، SKBI NERSONIK LTD

78

To: www.al-mostafa.com